للسيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

أحاديث صريحة في أمريكا



مؤسسة الرسالة

أحاديث صريحة في أمريكا

أبو الحسن علي الحسني الندوي

مؤسسة الرسالة

الطبعة الثانية

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف : ٢٩٥٥٠١ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب : ٧٤٦٠ برقياً : بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل إلى الكتاب

هذا الكتاب الذي بين يدي القراء هو مجموع محاضرات ألقيت في أمكنة مختلفة في الولايات المتحدة الامريكية وكندا ، وقد قُمت بهذه الرحلة بناءً على دعوة من المنظمة الاسلامية المعروفة للطلاب المسلمين في أمريكا وكندا Muslim Students Association America & Canada. في موسم الصيف عـام ١٩٧٧ م لحضور مؤتمرها السنوي المنعقد في « بلومنجتن » Bloomington « انديانا » Indiana واستغرقت الرحلة الفترة ما بين ٢٧/مايو ١٩٧٧ م و ٦/أغسطس ١٩٧٧ م ، ونظم القائمون على المنظمة في نهاية المؤتمر زيارة لشمالي أمريكا وكندا لمدة ٢٠ يوما ، تغطي أهم المدن والمراكز الحضارية والصناعية والثقافية في أمريكا وكندا ، التي يوجد فيها عدد وجيه من الجاليات الاسلامية ، والطلاب المسلمين ، والشباب الاسلامي المثقف وكثير من أبناء الاسلام ـ العرب والهنود والباكستانيين ـ الذين يعملون في مجالات الحياة المختلفة ، وبدأت الجولـة من نيويورك New-York City وانتهـت في

« شيكاكو » Chicago واستوعبت من بين مدن أمريكا الشمالية : نيويورك سيتي ، وجرسى سيتي ، فلاديلفيا ، بالتي مور ، بوستن ، وشيكاكو ، دترائت ، وسالت ليك سيتي ، سان فرانسسكو ، سان جوزي ، ولوس انجلوس (كاليفورنيا) ومن بين مدن كندا : مونتريال ، تورنتو ، بالاضافة الى مدينة واشنطون التي كانت زيارتها بعد انتهاء هذه الجولة .

ووفقني الله في هذه الزيارة أن ألقي عشرين محاضرة ، عشرا منها في اللغة العربية ، وعشراً منها في اللغة الأردية ، واتفق لي أن أتحدث في خمس جامعات من الجامعات الكبرى الشهيرة في أمريكا ، وهي : جامعة كولمبيا (نيويورك) ، وجامعة هارفارد (كمبيروج) ، وجامعة تترائت (ان آربور) وجامعة كاليفورنيا الجنوبية (لوس انجلوس) وجامعة أوتا (سالت ليك سيتي) ، كما وفقت لإلقاء خطب الجمعة في قاعة الصلاة في مبنى منظمة الأمم المتحدة بـ « نيويورك » ، وجامعي « تورنتو » و « دتترائت » وكان يستمع الى هذه المحاضرات ـ بحماس كبير ورغبة قوية ـ الطبقة المثقفة من المسلمين ـ ومعظم المسلمين المقيمين في امريكا هم الطبقة العليا من المسلمين المثقفين ـ وعدد كبير من الشباب الاسلامي ، العربي والهندي والباكستاني ، ويوجه المستمعون في ختام المحاضرات الى المحاضر ـ كعادة العصر الحديث ـ تساؤلات يسترشدون فيما يهمهم من المشكلات والقضايا ، وقد تنافسوا في تسجيل المحاضرات واهدائها ـ كهدية طريفة ـ الى اخوانهم

وذويهم وزملائهم .

واستطاع المحاضر أن يحصل على بعض الأشرطة ـ وقد فاته أن يحصل على جميعها في غمار الأسفار ـ فلما عاد الى الهند نقل منها معظم هذه المحاضرات الاخوة الأعزة السيد سعيد حسن والسيد سلمان الحسيني وعلاء الدين .

وها هي ذي بعض المحاضرات العربية بين يدي القراء العرب ـ وقد نشرت المحاضرات الأردية في مجموعة مستقلة لقراء اللغة الاردية ـ واذ يقدمها المحاضر للقراء الكرام فهو يأمل أنها ستنال اقبالا وتجاوبا لديهم ، وأنها ستكون عونا له على اعادة الثقة بالرسالة التي يحملونها ، والدور الذي ألقيت مسئوليته على عواتقهم ، ورفع معنويتهم وإزالة « مركب النقص » الذي يعانيه كثير من شبابنا ازاء الحضارة الغربية وقيمها ومثلها ، وكأنها هدية رحلة امريكا يزف بها الى القراء في العالمين العربي والاسلامي ، كما أنها « مكافأة » متواضعة للاخلاص والحب اللذين تلقاه بهما الأصدقاء والمحبون ، والمضيفون المخلصون في امريكا .

وان كانت لهذه المحاضرات المتواضعة سمة تتسم بها وقيمة تبرر اذاعتها فهي أنها تتسم بالصدق والصراحة ، وقد تحدث المحاضر عن الحضارة الغربية والمدنية الأمريكية المادية من مستوى عال وهي القمة التي يسمو اليها الاسلام والقرآن بأتباعه الناشدين للحق ، والمخلصين من طلاب العلم والدين ، القمة

التي يتراءى العالم القديم والعالم الحديث كلاهما أمام الناظر منها كسراب خادع ، وتبدو الزخارف كلها ، والنضارة والبهاء بأجمعهما ، كلمعان الفصوص الزائفة المزورة ، وليس في ذلك أي فضل لذكاء الخطيب وقوة دراسته ، أو فراسته وثقوب نظره وشفوف وجدانه ، وانما يعود الفضل كله الى التعاليم والرسالة التي يبلغ بمعتنقيها الى هذه القمة العليا التي يبدو منها العالم كله في أسفل السفوح ، وهنالك تنقشع كل غشاوة عن العيون فترى الأشياء كلها على ما هي عليه .

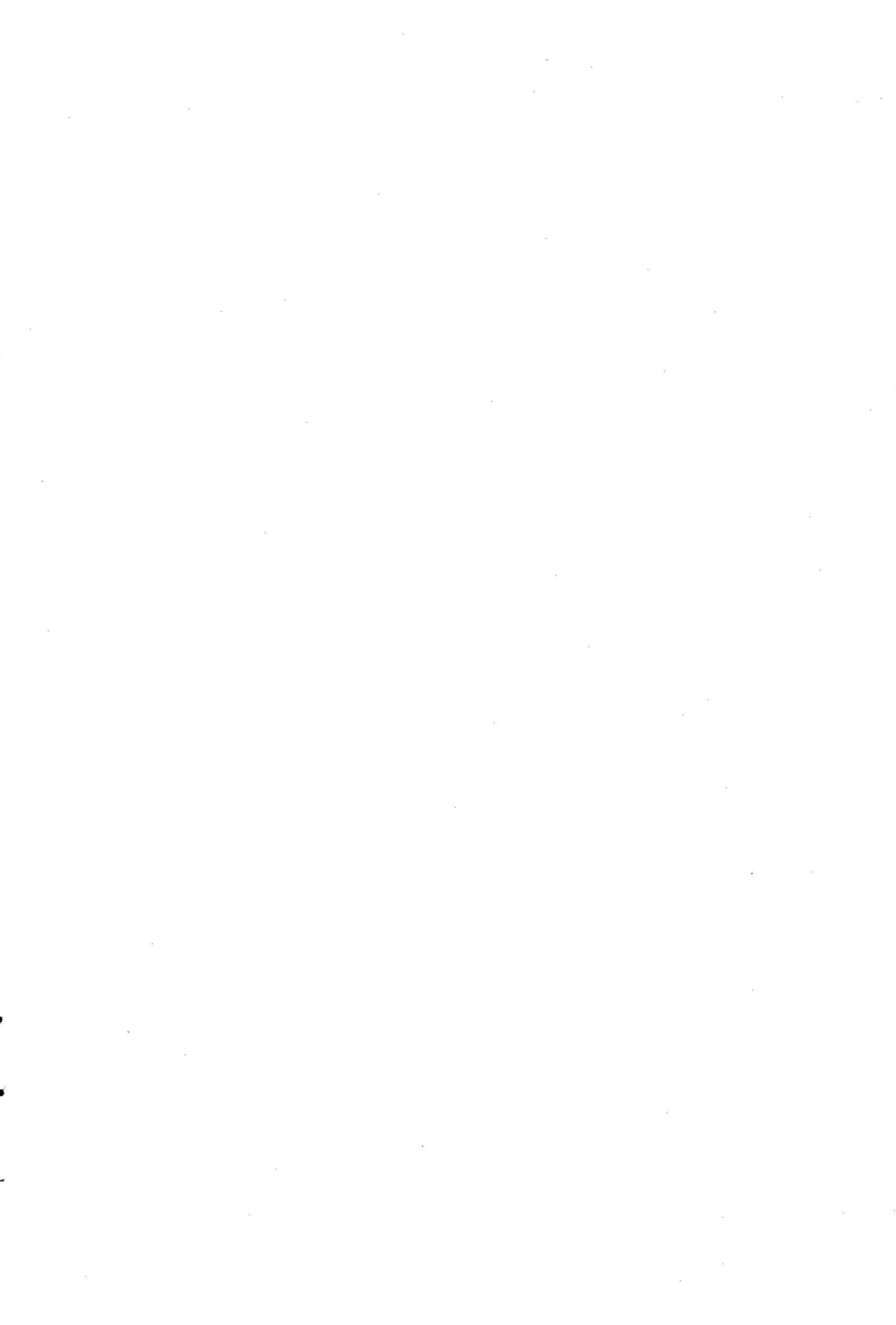
ويرى المؤلف لزاما عليه أن يوجه الشكر الى كل من عُنُوا برحلته هذه ، وقاموا باكمال ترتيباتها واجراءاتها ، وتوفير التسهيلات نحوها ، وتنظيم الحفلاتُ الكبيرة ولا سيما الأصدقاء المخلصون الذين نظموا هذه الزيارة وقاموا بتنسيقها ، والتدابير اللازمة بشأنها ، أخص الذكر منهم السيد ناظر الدين علي الحيدر آبادي المحترم (نائب رئيس M.S.A. والمسئول عن قسم البرامج) والصديق المخلص أنيس أحمد (مدير قسم التعليم والنشر والاذاعة والاعلام) وكذلك يستحق الشكر أمين عام المنظمة الدكتور محمود رشدان ، ورئيسها يعقوب مرزا ، اللذان نظما الزيارة ، وبذلا الجهد الجهيد على توسيع نطاقها ، وتعميم نفعها وتأثيرها ، وعلى توفير أسباب الراحة والسهولة للمحاضر .

وكذلك المؤلف مدين لأولئك المخلصين الطيبين ، المحبين للاسلام والمسلمين ، الذين استقبلوه بالحب والأخوّة والضيافة

الكريمة في المدن والأمكنة التي يسكنونها وساهموا في عقد الحفلات والندوات بنشاط كبير ، واعتناء وفير ، وسيطول الكلام لو رحنا نعدّ أسماءهم ، فجزاهم الله جميعا خير الجزاء ووفقهم لما يحب ويرضى .

ابو الحسن علي الحسني الندوي

٣/ ربيع الأول ١٣٩٨ هـ	دائرة الشيخ علم الله الحسني
١١/ فبراير ١٩٧٨ م	رائى بريلى ـ الهند



لا وزن لنا إلا بالاعتزاز بالاسلام

(وجه مكتب رابطة العالم الاسلامي في الأمم المتحدة بنيويورك الى صاحب هذه المحاضرات بصفته عضواً في المجلس التأسيسي للرابطة ، وبمناسبة زيارته لأمريكا الشمالية ، دعوة لزيارة المكتب والقاء خطبة الجمعة في القاعة المخصصة للصلاة في مبنى الأمم المتحدة ، أمام الحاضرين من مندوبي العالم الاسلامي وأعضاء مكاتب الدول الاسلامية ، وذلك في ١٥/ جمادى الآخرة ١٣٩٧ هـ ـ ٣/ يونيو ١٩٧٧ م ، فقبلها المحاضر ، وصلى بالناس صلاة الجمعة ، والى القراء الخطبة التي خطبها ، نقلاً من الشريط المسّجل) .

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونؤمن به ونتوكل عليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له ، ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، ونشهد ان سيدنا ونبينا ومولانا

محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وأزواجه وذرياته وبارك وسلم تسليماً كثيراً كثيراً .

حالة العرب في فجر الاسلام :

أما بعد ، فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » .

اخواني ! نزلت هذه الآية والاسلام في مرحلة الطفولة ، لم تكن له دولة ، وهو منحصر في الجزيرة العربية ، ومنحصر في العرب ، والعرب يعيشون في خصاصة من العيش وفي ضيق من الدنيا ، وغالب طعامهم التمر ولحوم الابل والشعير ، وغالب لباسهم الثوب الخشن الكرابيس ، وبيوتهم من مدر أو وبر ، وكانوا كالغنم في ليلة مطيرة شاتية ، ولا تصوير أبلغ وأدق من قوله تعالى : « واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس » .

بالعكس من ذلك كان الرومان والفرس سادة العالم وقادة المدنية والبشرية قد توزعوا العالم شرقه وغربه ، فكان الشرق تحت حكم الفرس ، وكان الغرب تحت حكم الرومان وقد لانت لهم الحياة ، واتسعت لهم الدنيا ، ودرّت لهم الأرزاق ، وسخت لهم الطبيعة ، ودانت لهم البلاد والأمم ، وطنّت حصاتهم ، وخفقت راياتهم في الشرق والغرب .

في هذا الجو القاتم ، في هذا الظلام الحالك الذي لا يبعث أملا ، تحدى القرآن هاتين القوتين وأثار الثقة والاعتزاز في

نفوس العرب المسلمين فقال عز من قائل : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » .

تحدي القرآن للطاقات المعادية :

قد تحدى القرآن قريشا ، وتحدى الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الفارسية فأنزل سورة يوسف لتسلية النبي ﷺ الرسول المرسل والقائد لهذه الطليعة المؤمنة ، فقال : « لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين » ، وختم هذه السورة بقوله : « حتى اذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجّي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ، لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ، ودوى الصوت المجلجل في الآفاق في سورة القصص وقد افتتح الله سبحانه وتعالى هذه السورة – في هذا الجو القاتم وفي هذا اليأس القاتل – فقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : « طَسَم ، تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين ، ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض فنجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

هل يصدق أن قائلا يستطيع أن يقول أو أن متفائلا أو متكهناً ـ اذا صح هذا التعبير ـ يستطيع أن يتكهن بمستقبل هذه الفئة المؤمنة الضعيفة المستضعفة ، المظلومة المضطهدة ، القليلة العدد ، الفاقدة للعُدَد ، هل يستطيع أحد في الدنيا مهما أوتي من ألمعية ، ومهما أوتي من بعد نظر ، ومهما أوتي من فراسة ، ومهما أوتي من جرأة أدبية ، ومهما أوتي من صلاحية المغامرة ، والمجازفة بالأقدار ، أن يتكهن لهذه الفئة المؤمنة ، لهذه الحفنة البشرية الضعيفة المستضعفة ، ويقول لها : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » .

ثقة تملأ جوانح العرب المسلمين :

كان هؤلاء العرب المسلمون قد غمرت نفوسهم وشحنتها هذه الثقة التي ملأت جوانحهم وملأت نفوسهم فصاروا ينظرون الى هذه الطاقات الكبرى كأنها دمي كسيت ملابس فاخرة وكأنها دعائم منخورة وكأنها هياكل منصوبة ، وكما يقول الله تعالى ـ ولا تصوير أبلغ وأدق من القرآن ـ : « واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة » فلما انطلق العرب من جزيرتهم وهم يحملون هذه الثقة ، وهذا الاعتزاز ، وهذا الايمان العميق ، جعلوا ينظرون الى هذه الطاقات الكبرى التي ملأت العالم هولا ومهابة ، وكان العرب وكانت البشرية بين أسدين ، أسد الرومان وأسد الفرس ، ولكن هؤلاء العرب كانوا يحملون قوة أخرى ، قوة خارقة للعادة ، قوة سماوية ،

قوة إلهية ، قوة قد أفاض بها الاسلام عليهم ، فكانوا أمة غير أمة ، وكانوا بشراً غير بشر ، وكانوا انسانا غير انسان ، كانوا لا يملكون شيئا وكانوا لا يحكمون بقعة من الأرض ولكنهم لما آمنوا بالله تبارك وتعالى ولما تجلت عليهم الحقائق السماوية الخالدة ، ولما تجلى لهم الفرق بين انسان وانسان ، وبين كفر وايمان ، وتجلى لهم الفرق الهائل الشاسع بين الحقيقة والصورة ، وبين الماء والسراب ، وبين المظاهر والظاهر ، وبين الطلاء الخدّاع ، وبين الحقيقة الناصعة .

نظرتهم من العالم الى ما وراء العالم :

لما كشف الله عن بصيرتهم ، ورفع الغطاء عن عيونهم صاروا ينظرون الى الأشياء في أصلها وحقيقتها وصاروا ينظرون الى حقيقة الانسان ، وما هي حقيقة الانسان ؟ ، ليست حقيقة الانسان أن يأكل ويشرب ، ويرتع ويلعب ، انهم لما عرفوا حقيقة الانسان ، وعرفوا حقيقة الايمان وصاروا ينظرون الى ما فوق هذه الأرض والى ما وراء هذا العالم الظاهر المحدود ، صاروا يستخفون ويستهينون بهذه المظاهر الخداعة ، ويستهينون بهذا السراب الخادع ، وصاروا ينظرون الى هؤلاء ككلاب مدللة ، أوكطيور ساجعة مترنمة ، في قفص من ذهب ، أسلاكه من ذهب ، وسقفه من ذهب ، وأرضه من ذهب ، والاناء الذي يقدم فيه الماء من ذهب ، ولكنه قفص ، والقفص مهما كان ذهبيا ، ومهما كان واسعا فانه قفص ، والسجن مهما كان

واسعا ومهما كانت فيه حدائق غناء وكانت فيه هذه المباني الناطحة للسحاب فانه سجن .

انهم رأوا الى هؤلاء الملوك والى هؤلاء الذين يسمون وزراء ، ويسمون أمراء ، ويسمون قادة الجيوش ، ويسمون فلاسفة ، ويسمون عقلاء ، ويسمون رجال البلاط ، كأنهم ممثلون يمثلون مسرحية قد صنعت لهم وأمروا بتمثيلها ، إنهم ممثلون لا أكثر ولا أقل .

رأوا الى هؤلاء ، قلوبهم خاوية وأرواحهم ذابلة ، وعقولهم فارغة ، وانما يملأ كل هذا الفراغ ما يتمتعون به من ثروة ، وما يتمتعون به من رخاء ، وما يتمتعون به من لذة عاجلة ، وما يتمتعون به من تكريم وتبجيل ، ولكنهم كلهم أناس يتحركون ، هم صور تتحرك ، ولا تتحرك بارادتها ، ولا تتحرك القوة في داخلها ولا تتحرك لغاية رشيدة ، انما تتحرك لتأكل ، انما تتحرك لتتلذذ ، انما تتحرك لتتمتع ، لا رحمة لها للبشرية ، ولا شفقة لها على الانسانية ، انما هي تستخدم البشرية للذاتها ، ولعزتها وكرامتها المصطنعة المختلفة ، تيجان على رؤوس ، ولكن رؤوس فارغة ، وملابس على أجسام ، ولكن أجسام هزيلة ، وطلاء على اناء جميل ، ولكنه اناء فارغ .

القرآن يشحن بطاريتهم بالايمان والثقة :

هكذا تجلى للعرب لما خرجوا من جزيرتهم يفتحون العالم ، لا ليملكوه ، بل لينقذوا البشرية من أعدائها ، لينقذوا البشرية

من براثن الوحوش ، لينقذوا البشرية من هذا الظلم الذي أظلهم ولزمهم ، والذي قضوا فيه قرونا طويلة ، لما خرجوا يخرجون الناس من عبادة الناس الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، هانت عليهم هذه المظاهر هانت عليهم هذه الدول ، هانت عليهم هذه الرايات الخفاقة ، هانت عليهم هذه البلاطات الفاخرة ، هانت عليهم هذه المباني الناطحة للسحاب ، هانت عليهم هذه المواكب الزاخرة بالناس ، هان عليهم هذا الخدم والحشم ، ورأوا اليهم كحيوان لا عقل عنده ، ولا شعور ، ولا رحمة عنده ولا عطف .

هكذا ملأ القرآن الكريم هؤلاء العرب الذين كانوا أميين ، كانوا أميين بصفة عامة ، وكانوا في مؤخر الركب ، ركب المدنية ، ولكن القرآن شحن بطاريتهم شحنة جديدة ، شحنة ايمان ، شحنة اعتزاز ، شحنة ثقة ، شحنة تسامٍ ، شحنة تعرف بالأشياء وحقائق الأشياء ، فخرجوا الى هؤلاء وسخروا العالم ، لا ليملكوه ولا ليحكموه ، ولا لمآربهم كما سخرته هذه الأمم ، ولكن لِيُحنو الجباه ، والرؤوس أمام الله تعالى وحده لا شريك له ، وليدخلوهم في حظيرة الاسلام ، في حظيرة العدل السماوي ، في حظيرة عقيدة التوحيد ، في حظيرة الرحمة على الانسانية .

نحن أحق بهذا الاعتزاز :

ونحن هنا في رحاب مركز الأمم المتحدة ، ونحن نمثل

أربعين (٤٠) دولة نحن أحق بهذا الاعتزاز وبهذه الثقة ، وأحق بأن يقال لنا في هذا الصوت السماوي الخالد مخاطباً لنا « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » ، نحن أحق بذلك ، ان العرب لم يكن لهم دولة حتى في جزيزة العرب لما نزلت هذه الآية وقد مضى على ظهور الاسلام أكثر من عقد واحد ، والاسلام لا يزال طفلا يدب ويسعى على الأرض ، ولكن الله سبحانه وتعالى رآهم جديرين بأن يخاطبوا بهذا القول ، ألسنا جديرين أيها الاخوان ، ونحن نمثل أربعين دولة ، ولنا رايات تخفق هنا ، ونحن وان كنا لا نملك هذا الحول والطول ، ولسنا في مستوى هذه الدول بتخلفنا عن ركب الحضارة ، وبتقصيرنا في جنب العلم والمدنية ، وبتكاسلنا وتوانينا وانقسامنا على أنفسنا ، وباستخفافنا بالتعاليم الاسلامية ، وبعدم قدرنا لنعمة الاسلام ، ولكن على كل حال ، نحن الآن أعز من العرب الأولين الذين لم تكن لهم ، ولا دولة واحدة ، ألسنا أحق بذلك ؟

ولكن الله تعالى في نفس الآية يقول : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » ، هذا الايمان هو قيمة المؤمن ، هذا الايمان هو شحنة هذه البطارية ، فاذا لم تكن هناك شحنة فلا قيمة لها ، ان هذا الايمان هو الصنجة الثقيلة التي اذا وضعت في كفة ميزان رجحت هذه الكفة ، هذه الصنجة التي وضعها رسول الله ﷺ يوم بدر بقوله : « اللهم ان تهلك هذه العصابة لن تعبد » انه عرف ـ وهو الذي رزقه

الله العقل السليم ورزقه صلاحية الاستعراض للواقع الصحيح ـ انه لو كان الحكم بالقوة ، ولو كان الحكم بالعدد لما كان للاسلام وللمسلمين مستقبل ، ولما قام له كيان على الأرض ، انهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا وازاءهم الف رجل مدجج بالسلاح ، فكيف تنتصر هذه القلة القليلة على الكثرة الكاثرة ، هنالك لجأ رسول الله ﷺ الى الله تبارك وتعالى مناشدا ومبتهلا ، يناشده بقوله : « اللهم ان تهلك هذه العصابة لن تعبد » .

هذه قيمتنا أيها المسلمون ، هذه قيمة هذه الدول اذا كانت هذه الدول وهذه الشعوب الاسلامية الكثيرة التي يزخر بها العالم اليوم والتي لها كلمة مسموعة حتى في هيئة الأمم والتي نشرف جميعا بتمثيلها هنا ، هذه الشعوب المسلمة اذا كانت تحمل هذا الايمان العميق ، هذا الايمان المتقد المتأجج الذي يستولي على مشاعر الانسان والذي يملك على الانسان مشاعره وأحاسيسه ، اذن فان المؤمن عزيز ، المؤمن له مكانة فالشرط أن نكون مؤمنين .

واذا تجردنا عن الايمان كما تجردت تلك الشعوب والدول عن الايمان الذي دعيت اليه فآمنت به في زمن من الأزمان فأصبحت جوفاء وأصبحت اجساما نخرة وخشبا مسندة فلنحذر من أن نكون خشباً مسندة ولنحذر ان تكون لنا أسماء مشرقة وأسماء كثيرة العدد في قائمة الأمم ولكن في ميزان الله تبارك وتعالى الذي هو الميزان الحقيقي في الدنيا والآخرة لا يكون لنا وزن ، فليس لنا وزن في هذا الميزان الا باتصافنا بالايمان

والا بحملنا لشعلة الايمان وإلا بحملنا لرسالة الاسلام والا باعتزازنا بالاسلام .

هنا في أمريكا في هذه العاصمة الكبيرة وفي قلب أوربا وفي بلادنا وعواصمنا نفتخر بالاسلام ونقول نحن مسلمون أولا وآخرا ، وأن الله سبحانه وتعالى أكرمنا بأكبر نعمة ، ألا وهي نعمة الاسلام ، فاذا افتخرنا بالاسلام واعتززنا به فالله سبحانه وتعالى ناصرنا ومؤيدنا ومشرفنا ، وهذا وعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

أما اذا كنا أسماء فارغة أو أسماء من غير مسمى ، كما قال الأمير شكيب أرسلان عن جمعية الأمم التي تسمى الآن بالأمم المتحدة في بعض كتاباته : « انها بحر كبحر العروض بحر ولا ماء » ، فاذا كنا بحرا ولا ماء فأسفاً اذن لا نتوقع النصرة من الله سبحانه وتعالى ، انما الوزن للايمان وانما الشأن في الايمان ، وانما العبرة بالايمان .

نسأل الله تبارك وتعالى أن نرجع الى الاسلام كما كان السلف الصالح وأن نعبد الله سبحانه وتعالى ولا نخشى غيره وأن نكون أوفياء لدينه ومعتزين برسالته وأن تقترن حياتنا برسالة الاسلام وباسم الاسلام وباسم الايمان نسأل الله عز وجل أن يمن علينا بذلك ، انه على كل شيء قدير .

الفَرَاغ الذِي كَانَ يَعَيشـُهُ الإنسان قبل البعثة المحمدَيَة وَيعيشهُ في القَرن العِشرين، وَمَوقِفُ المسلم العَرَبي إزاءَهُ

(ألقيت هذه المحاضرة بالعربية في مدينة Salt Lake City أمام جمع من العرب المثقفين المقيمين أو العاملين في هذه المدينة الأمريكية وذلك في ٢٧/جمادى الآخرة ١٣٩٧ هـ ـ ١٥/ يونيه ١٩٧٧ م)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وصحبه أجمعين، وعلى من تبعهم باحسان الى يوم الدين.

أما بعد! فإنني أعتذر الى اخوتي الذين لا يفهمون اللغة العربية، انني سأتحدث باللغة العربية، وانه من معجزات القرآن، ومن معجزات الدعوة الاسلامية، أن يعبّر عجمي هندي عن ما في ضميره باللغة العربية، وأريد أن نستحضر جميعا ونؤمن بهذه المعجزة ويكون لي الشرف في تجسيم هذه الحقيقة في هذا البلد البعيد عن مركز الاسلام، ومعذرتي الى اخوتي الى أبناء بلدي ولغتي، من شباب وشابات، وسيكون

لي معهم حديث في لغتهم ان شاء الله في هذا المجلس وفي غير هذا المجلس .

قفزة واسعة :

أيها الاخوة الكرام ! ان الآيات القرآنية التي تليت آنفاً قد نقلتني من هذا الجو الأمريكي المكهرب بالحضارة الغربية ، وبالتقدم الحضاري ، من هذا الجو القاتم الغائم الى ما قبل ثلاثة عشر قرنا ، هذا من جهة المساحة الزمنية ، ومن أمريكا الشمالية الى جزيرة العرب ، هذا من جهة المساحة المكانية ، وهما مساحتان بعيدتان .

انها قفزة واسعة ، فقد تمثلت لي تلك الفترة الزمنية التاريخية التي نزل فيها هذا القرآن ، وهو لا يلقي أذنا صاغية ، وإنما يلقى مطاردة ومقاطعة ، وجفاءً ونكرانا ، كان العرب يسمعون هذا الصوت العذب الرخيم ، وكانوا يعتقدون أن هذا الصوت سيغيب في الفضاء ، كما غابت الأصوات الأخرى التي ارتفعت ودوت ، وكانوا واثقين كل الثقة بأن هذه محاولة فاشلة ، وأن هذه الدعوة دعوة مؤقتة ، وانه ليس إلاّ كصور تطفو على الماء ، اذا ألقى الانسان حصاة فان هذه الحصاة تكوّن خطوطاً ودوائر على سطح الماء ، ثم لا تلبث أن تغيب ، كانوا واثقين كل الثقة أن لهذا القرآن ولهذه الدعوة أجلا قصيرا معدودا بساعات لا بأيام ، ولكن أراد الله أن يخلد هذا الصوت ، وأن يدوى حتى في قلب أمريكا ، ويسمعه السامعون ، وكنت

أستشعر وأنا أسمع القرآن وأسبح في عالم الخيال واستحضر تلك الأجواء التي نزلت فيها هذه الآيات .

الدعوة الاسلامية بين المدنيات الزائفة :

انطلقت هذه الدعوة من جزيرة العرب ومن مكة المكرمة ، ثم انتقلت (لأنها طوردت وحوربت في بلدها ووطنها) الى مدينة يثرب ، واستقبلتها هذه المدينة ، واستمر القرآن ينزل ، واستمر الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو الناس ، وحوله وحول الجزيرة مدنيتان قد بلغتا أوج الحضارة وأوج التقدم ، وأوج الرفاهية ، وقد بلغتا أوج الشعور الرقيق وأوج الآداب والعلوم ، والفنون والفن المعماري ، والنظم السياسية والدساتير الدقيقة وقد جاء جستن على عرش روما ، وجاء أنوشيروان على عرش « ايران » فسنا قوانين دقيقة وحكمت الامبراطورية البيزنطينية النصف الغربي والشمالي من العالم المتمدن ، وحكمت الدولة الساسانية الفارسية النصف الشرقي من العالم ، وطوقتا الجزيرة العربية ، وصارتا تسيّران الانسانية كلها ، وتتحكمان في مصيرها وفي عقولها ، وفي مشاعرها ، وفي القيم والمثل والموازين ، فكانتا هما المنتهى في السعادة ، وفي الرقي ، والمنتهى في العلم والتقدم .

فراغ هائل :

هنالك وفي هذا الجو ، وفي هذه البيئة ، ظهرت الدعوة

الاسلامية ، وكانت هاتان الحضارتان الرومية والفارسية تملكان كل شيء ، وقد توفرت عندهما الوسائل وخضعت لهما خضوعاً تاما ، ولكن كان هنالك فراغ عقائدي ، فراغ ايمان ، فراغ هدوء ، فراغ سكينة ، فراغ ثقة بالنفس ، وثقة بالانسان ، وثقة بمستقبله ، وباستحقاقه وجدارته للبقاء وللمسيرة ، وقد سدت الأبواب أمامهما ، ووقفتا حائرتين مضطربتين على نقطة التقدم ، ونقطة الرفاهية ونقطة التمتع باللذات ، ونقطة التلهي والتشهي ، ونقطة التفنن في الحضارة .

ولكن ما وراء هذه النقطة ؟ لا يعرف ذلك أحد ، لا فلاسفة ، ولا حكماء ، ولا أدباء ولا شعراء ، ولا مقننون للقانون ، والمشرعون البارعون ، ولا قادة حرب ، ولا قادة فكر ، كلهم واقفون واجمون ، حائرون مضطربون ، متشككون ، مرتابون ، لا يعرفون المصير الانساني ولا يعرفون ما وراء هذه الطاقات البشرية التي استخدموها وعصروها عصرا ، حتى ما بقيت فيها قطرة ، ولكن ماذا بعد؟ لا يعرف ذلك أحد ، فراغ في العقائد ، عقائد لا تستحق أن تسمى عقائد ، كل ما كان عندهم هو تاريخ عقائد ، يعني كانوا يؤمنون بكذا في زمن من الأزمان ، كانوا يؤمنون بالله تعالى في غابر الدهر ، ولكن هل لا يزالون يؤمنون بالله ؟ لا ! كل ذلك ، انما هو تذكار تاريخي ، انما هو آثار تاريخية قد حفظت ودوّنت في كتب التاريخ ، وفي الفلسفة ، ولكن ما هنالك عقيدة حية قوية تملك عليهم المشاعر ، وتضبط حركاتهم وسكناتهم ، وتحكم

عليهم ، لا ! قد أفلت الزمام ، قد فقدت هذه العقائد كل قوة وكل ضبط ، وكل حكم ، فالعقائد هي عقائد تقليدية فقط ، عقائد مرددة باللسان ، ولكن ليس لها نفوذ ، ليس لها تأثير في الأخلاق ولا في الأعمال .

حضارات بلا هدف :

ثم ما هو الهدف من الحياة ؟ لا يعرفون الهدف ، هدف الملوك أن يحكموا على أوسع بقعة من العالم ، ولكن يا سادة ! ما هذا بهدف يستحق الاحترام والاهتمام ، وهدف الوزراء أن يرضوا الملوك وأن يخضعوا لهم ، وأن يحققوا رغباتهم ، وهدف قادة الحرب أن يسوقوا الناس سوقا الى جهنم الحروب ، لماذا يحارب هؤلاء ؟ لا يعرفون ! لماذا يساقون الى ساحات الحرب ؟ ، انهم لا يعرفون ! انهم كقطعان من الغنم تساق سوقاً لا رحمة فيه ولا هوادة ، الناس يؤدون الخراج ، الناس عليهم ضرائب فادحة قاصمة للظهور ، لماذا يؤدونها ؟ يؤدونها ليقضي الملوك وأصحاب البلاط ، والسريات ، رغباتهم وشهواتهم ، انما يؤدون الضرائب ليترفه وليترغد حفنة من الناس ، يشقون لسعادتهم ، ويتعبون لراحتهم ، ويموتون لحياتهم .

هكذا كان الجو في ذلك الحين ، حضارة بلا هدف ، وحكومات بلا هدف ، وقوانين بلا هدف ، حياة من غير لذة ، وجسم من غير روح ، وألفاظ من غير معنى ، وخطوط من غير وضوح ، انما هو كله ظلمات بعضها فوق بعض ،

وصدق الله العظيم : « أو كظلمات في بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

ظلام مطبق :

كان العالم كله في ظلام مطبق ، يتسكع في الجهالات والسفالات ، يرسف في قيوده التي صنعها ، ويشحط في دم نفسه التي أراقها ، لا صلة بين طبقة وطبقة ، ولا صلة بين حاكم ومحكوم ، ولا صلة بين عالم ومتعلم ، ولا صلة بين العلم والأدب ، والفلسفة والحكمة ، وبين الشعب والجمهور وعامة الناس ، انقطعت الصلات ، وأصبحت كل طبقة تعيش لنفسها ، وبنفسها وعلى نفسها .

القرآن تحدى الوضع العالمي :

هكذا كان الوضع لما ظهرت الدعوة الاسلامية ، ولما نزل القرآن يتحدى هذا الوضع كله ، ويتحدى هذه الحضارات كلها ، ويقول بكل وضوح وبكل صراحة ، أنتم في جهل مطبق ، انتم في ظلام حالك ، أنتم في ظلم فاحش ، أنتم في حيرة لا نهاية لها ، أنتم في وحشة فظيعة ، أنتم في همجية رذيلة ، من كان يستطيع أن يتحدى هذه القوى الجبارة ، ومن كان يستطيع أن يرفع صوته ضد هذه الموجة العارمة ؟ ، هذا النبي

الذي عاش فقيرا ، واضطر أن يغادر وطنه الحبيب العزيز الذي فيه الكعبة ، البيت الحرام ، هذا النبي المضطهد المظلوم الذي اضطر الى الهجرة ، وهذه المجموعة البشرية التي التفّت حوله على أساس الايمان والعقيدة ، وعلى أساس الحب والعاطفة ، وعلى أساس التعليم للانسانية ، هذه المجموعة البشرية تحدّت العالم كله .

في هذه البيئة الذليلة الحقيرة ، يقول القرآن : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » ، لا دولة ولا مجتمع ، ولا جيش ولا سلاح ، ولا بترول ، ولا شيء في هذا الوضع ، يقول القرآن مخاطباً للعرب الذين هم اذلاء ، فقراء ، ضعفاء ، جهلاء ، أميون ، يقول لهم : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » .

من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم :

هل يستطيع أحد من سادة بلادنا الاسلامية ، ومن رؤساء الجمهوريات ، ومن ملوك العالم الاسلامي ، ان يكتب الى رئيس من رؤساء الجمهوريات ، « من فلان الى فلان ، أما بعد ! أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين » ، ومحمد بن عبد الله على فقره وعلى ضعفه ، يستطيع أن يكتب الى قيصر امبراطور الروم ، الى أقوى انسان ، وأغنى انسان في عصره ، يقول : « من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم » ، ان الرسول يستنكف في أن يسميه قيصر ويقول : من محمد يقدم اسمه

الشريف ، يقول من محمد رسول الله ، ولا يقول من محمد ابن عبدالله ، لا ! هذا كتاب دعوة ، هذا ليس كتاب سياسة ، أو معاهدة وحلف ، يقول : « من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم ، أما بعد ! فاني أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فان عليك اثم الأريسيين » ، « يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وهذا كان شأن النبي ﷺ مع كسرى الذي مزّق كتابه ، فقال سيتمزق ملكه ، وقد مزّق الله ملكه تمزيقا ، فتحققت نبوته عليه الصلاة والسلام ، اذ قال : « اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » ، وان رضا شاه البهلوي على علاته لا يزال ينتسب الى هذا الدين .

الحضارة الغربية حضارة ملوثة لا طهارة فيها ، وقديمة لا جديد فيها :

اخواني ! هذه الحضارة الغربية حضارة ميكانيكية ، حضارة مادية محضة ، لا روح فيها ، انها حضارة لا هدف لها الآن ، قد أصبحت كالبعير المجترّ ، الذي يجترّ ما في بطنه ، ما هنالك شيء جديد ، هذه الحضارة الغربية قد قالت كلمتها الأخيرة قبل زمن ، الآن هي تعيش على امتدادها تعيش على ما

حققت من انتصارات ، ومن فتوح في المجال الحضاري ، والصناعي ، التكنالوجي ، لا شيء جديد لا رسالة لها للانسانية ، انها في الحقيقة لا تفكر في مستقبل الانسانية ، انها الآن تعيش لنفسها فقط ، وأصبحت كما يقول الشاعر الدكتور محمد اقبال :

« من اين نبحث عن الذوق اللطيف ، وعن الأفكار السامية ، وعن النظرة الطاهرة ، في الحضارة الغربية ، وهي حضارة غير عفيفة ، قد تلوثت ومُسخت من زمان » .

انني اعتبركم أكثر من طالب :

أنتم أيها العرب ! انتم يا شباب المسلمين ، انتم أيها الطلبة والطالبات ، لستم تلاميذ فقط ، انني أعتبركم أكثر من طالب ، لقد تحررنا وتحرر كثير من البلاد العربية ، والاسلامية من الرق السياسي ، كان ذلك ضروريا ، لا شك ، ولكن لم نتحرر بعد من الرق الفكري ، نحن مصابون بمركب النقص أمام هذه الحضارة ، فمسئوليتكم ان ترجعوا الى بلادكم وتقولوا لأبناء بلادكم ، يا اخوتنا نحن قد نزلنا في أعماقها فعرفنا أنها حضارة خاوية ، حضارة جوفاء ، انها حضارة كمبيوتر Computor انها حضارة التأمين Insurance فالجهاز المدني كله قائم الآن على التأمين ، والجهاز الصناعي كله قائم على كمبيوتر ، ولكن أين قلب هذه الحضارة ؟ أين روح هذه الحضارة ؟ ، أين رسالة هذه الحضارة ؟ ، وأُحب أن ترجعوا الى بلادكم ، وتزيلوا مركب النقص من قلوبهم وترفعوا الغطاء عن أعينهم ،

وقولوا لهم يا شباب ! أنتم بعيدون عن هذه الحضارة ، ولكننا قد سبحنا فيها ، وقد نزلنا في أعماقها ، وعرفنا حقيقة هذه الحضارة ، فنقول لكم عن خبرة لا عن تقليد ، انها حضارة جوفاء ، وطلاء خداع .

هذه المصانع العملاقة لا تصنع الايمان :

ثم اذا وفقكم الله ، تقولون للذين يملكون زمام هذه الحضارة ، أنتم تملكون كل شيء ولكن لا تملكون العقيدة ، لا تملكون الايمان ، لا تملكون الهدوء ، ليس عندكم شيء يعطيكم الايمان ، لا تصنع الايمان مصانعكم العملاقة الجبارة ، هذه المصانع لا تستطيع أن تصنع ايمانا ، من أين يستصدر الايمان ؟ ، من أين يجلب الايمان ؟ ، يجلب الإيمان من القرآن ، يجلب الايمان من السيرة النبوية ، يجلب الإيمان من هؤلاء المسلمين الذين يعيشون على ايمانهم ، ويحمدون الله على فقرهم وهم راضون مطمئنون هادئون ، ساكنون ، ليس عندهم قلق ، هذا القلق الذي استحوذ عليكم وجرّكم الى السآمة ، والى ردود فعل حمقاء ، وجرّكم الى الانتحار ، وجرّكم الى اليأس القاتل ، هذا الإيمان لا يمكنكم أن تقتبسوه من فلسفتكم ، ومن هذه الجامعات الكبيرة ، انما تقتبسونه من القرآن وحده ، وتقتبسونه من السيرة النبوية وحدها ، ومن تاريخ الصحابة رضي الله عنهم ، اذا كنتم تتمتعون بقشور الحياة ، فانهم كانوا يتمتعون بجوهر الحياة ، وروحها ولذتها .

هذا يجب أن يكون موقفنا إزاء هذه الحضارة ، ويكون موقفنا ما دمنا هنا ، وموقفنا اذا رجعنا الى بلادنا .

كيف ننظر إلى الحياة الغربية الأمريكية وكيف نتعامل معها

(محاضرة ألقيت في اجتماع خاص للشباب المسلم بمدينة لوس انجلوس Los Angeles في ٢٤/ جمادى الآخرة ١٣٩٧ هـ - ١٢/ يونيه ١٩٧٧ م، وقد نظمه الاتحاد العالمي للطلاب في أمريكا وكندا، وكانت المحاضرة مسجلة، ونقلت من الشريط).

اخواني! ان هذه البلاد التي نلتقي فيها الآن بلاد سعيدة وبلاد شقيّة، ولعل هذا الكلام يبدو متناقضا اذا فكرتم فيما أن يكون شيء في وقت واحد سعيداً وشقيا، ولكن اذا شرحت لكم الفكرة اتضح لكم معنى السعادة والشقاء في وقت واحد.

بلاد شقية وسعيدة بنفس الوقت:

ان هذه البلاد سعيدة لأن الله تعالى قد أنعم عليها بنعم كثيرة، ان الله سبحانه وتعالى قد وسع لها في الرزق، وسع لها في الخيرات، وسع لها في الذكاء، وسع لها في قوة الارادة، في صلاحية التنظيم، تنظيم الحياة، وقد وسع لها في الخصب

الأرضي ، والخصب العقلي ، وهذا كله من الدليل على سعادتها ، وقد أصبحت اليوم هي القائدة للمدنية العصرية وهذه المدنية العصرية التي تسمى المدنية الغربية تستحق أن تسمى المدنية الأمريكية ، لأن المدنية الأمريكية الآن هي المسيطرة على العالم كله ، ولها نفوذ رضينا أم لم نرض ، أردنا أم لم نرد ، لها نفوذ في قلب العالم الاسلامي ، ومع الأسف الشديد في الجزيرة العربية فالعالم الاسلامي يتجه الآن الى هذه البلاد ، والجزيرة العربية قد ألقت أفلاذ أكبادها الى هذه البلاد ، فاذا أردتم أن تعدوا الشباب السعوديين ـ فقط ـ الذين أموا هذه البلاد تجدونهم في عشرات الألوف ، هذا فضلا عن الهنود والباكستانيين أو عن الايرانيين أو عن أبناء بلاد أخرى .

ولكنها في نفس الوقت ، وفي نفس اللحظة بلاد شقية ، ولا تنظروا إليَّ شذراً أيها الاخوان ! انها بلاد شقية لأنها كان نصيبها من الديانات ، الديانة المسيحية ، وكان نصيبها من مجالات النشاط الانساني ، المجال المادي التكنولوجي فقط ، أما شقاؤها من جهة الديانة ، ومن جهة العقيدة فهو أن الديانة المسيحية هي أبعد ديانة عن روح هذه البلاد وعن دور هذه البلاد الذي قامت به ومثلته في تاريخ الانسانية ، اذا سئل : ما هي أبعد الديانات عن روح هذه البلاد وما هي أغرب الديانات عن طبيعة هذه البلاد ، وعن مركزها القيادي ، وروحها القلقة وعقلها المتوثب ؟ فالجواب الوحيد المعين أنها الديانة المسيحية ، لأن الديانة المسيحية هي التي تجعل الانسان يؤمن بأنه خلق

آثماً مذنبا ، مجرماً بالفطرة البشرية ، فكان لا بد له من فداء وإن المسيح ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ كان فداء هذا الانسان المخطىء المجرم بالفطرة ، هذه العقيدة هي التي تنشىء في الانسان عدم الثقة بصلاحيته ، وعدم الثقة بفطرته الصالحة ثم ان هذه الديانة تحبب الرهبانية وتزهّد في حياة الكفاح ، وتزهد في حياة النضال ، وتزهد في حياة المنافسة والمسابقة التي هي من أكبر رواد رقي الانسان وتقدمه ، فالديانة المسيحية ديانة غريبة في هذه البلاد ، ديانة قد فرضت على هذه البلاد فرضا ، قد فرضتها الأدوار التي مرت بها ، ومر بها التاريخ الانساني .

المسلمون مسئولون عن هذا الشقاء :

وقد كانت على المسلمين مسئولية كبيرة في هذا الشقاء ، لأن المسلمين فرطوا في نقل رسالة الاسلام المثلى ، وفي نقل عقيدة الاسلام ، العقيدة الواضحة المقبولة لكل انسان ، الحافزة للبشرية ، المفتقة للقرائح ، الشارحة للصدور ، المثيرة للغرائز ، انهم فرطوا في حمل هذه الرسالة الجليلة المثلى الى هذا البلد ، ان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد منحهم فرصة الحكم في قطعة من أوربا قد حكموا فيها قرونا ، ولكنهم قد فرطوا تفريطا عظيما ، تفريطا مجرما في نقل الاسلام الى أنحاء أوربا البعيدة ، وفي تغلغل الاسلام في أحشاء أوربا ، انهم ظلوا في هذه القطعة الأوربية يبنون هياكل ومباني عظيمة ، ويؤسسون حضارة

جميلة ، ويوسعون علوما وثقافات ، ويعنون بالآداب والشعر ، والفنون الجميلة ، ولكنهم فرطوا في نقل الاسلام ونشره في أوربا ، فكانت النتيجة أن هذه البلاد بقيت تجهل الاسلام ، وبقيت في عزلة عن الاسلام .. هذا الأول ، والشيء الثاني أن هذه البلاد كان مجال نشاطها المادي التكنولوجي ، الميكانيكي .

ومن سنة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه يعين كل انسان ، وكل شعب ، وكل مجموعة بشرية ، وكل مؤسسة انسانية على ما تختاره من مجال لنشاطها وذكائها ، فيقول الله تبارك وتعالى :

« كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا ، أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » .

فلما اختارت هذه البلاد المجال المادي لنشاطها وذكائها وعبقريتها وانتاجها كانت لها فتوح عظيمة ، وكان لها انتصار كبير ، سخرت الطاقات ، واكتشفت الأسرار ، واستخدمت الوسائل لترفيه الحياة وتوسيعها وتسهيلها ، ولكنها حرمت الهدوء ، حرمت السكينة ، حرمت الايمان العميق ، حرمت الهدف الصالح ، حرمت الغايات المثلى ، حرمت الجمع بين الدين والدنيا كما يقول الله تبارك وتعالى على لسان المؤمنين :

« ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

حضارة القلق والسآمة :

فاختارت هذه البلاد المجال المادي ، والمجال الصناعي فقط ، فكان لها تقدم رائع كان لها ازدهار ، ولكنها لما أهملت الجانب الروحي ، وأهملت عالم القلب والنفس ، وأهملت العناية بمعرفة الهدف الصالح للحياة ، وأهملت الجانب الخلقي والجمع بين الأخلاق الفاضلة وبين الصناعات البشرية ، فان هذه الصناعات وهذا التقدم لا يصلح الا مع الأخلاق ، الأخلاق التي تضبط الجشع وتضبط النهامة ، وتضبط حب المال وحب الاستيلاء على البشر ، وحب الظلم والقهر للأمم والشعوب ، الأخلاق وحدها هي التي تستطيع أن تملك الزمام ، وهي التي تستطيع أن توجه هذه العلوم توجيها صالحا الى غاية رشيدة ، فلما أهمل الغرب كله ـ بمعناه الواسع ـ وعلى رأسه وفي مقدمته أمريكا التي نلتقي فيها الآن في هذه الأمسية المباركة الجميلة ، انها لما أهملت الجانب الخلقي ، والجانب العقائدي ، والجانب الروحي ، كانت النتيجة أن البلاد أصبحت شقية في الروح ، مضطربة ، حائرة ، ساد عليها القلق ، وساد عليها التذمر ، وسادت عليها السآمة ، وليست حركة الخنافس ، وليست الحركات التي تلاحظونها في هذه البلاد ـ التي تدل على القلق ، وتدل على التذمر ـ الا ردود فعل عنيفة على هذه الثورة المادية ، ضد هذا التضخم ، هذا التضخم النقدي والتضخم المادي ، فهذه البلاد ـ كما قلت لكم ـ بلاد شقية

وبلاد سعيدة ، ولكنها الآن في دور القلق والاضطراب ، لا تتبين أمرها ولا تملك زمامها ، أصبحت مركبا تركبه الحياة ولم تعد راكبا يركب الحياة ، الحياة تسوقها سوقا عنيفا ، ولم تعد تقدر على أن تسوق الحياة سوقا رفيقا ، سوقا متزنا ، سوقا هادئا .

أنتم العماليق ، وهؤلاء هم الأقزام :

أنتم يا شباب الاسلام ، أنتم يا أبناء الأمة الابراهيمية المحمدية الخالدة ، أنتم تستطيعون أن تلقوا عليها درسا ، وأن تقودوها ، وأن تنظروا اليها نظر ناقد لا نظر مقتطف ، لا نظر متطفل ، لا نظر تلميذ صغير حقير ، ولكن مع الأسف الشديد ألاحظ أن الشباب الذين يأتون هذه البلاد ، يأتون اليها غير مستعدين لم يعدوا نفوسهم ولم يعدهم آباؤهم وأساتذتهم ومربوهم وسادة بلادهم لأن يكونوا هناك أصحاب شخصية ، فما لنا من شخصية اسلامية ، نحن نؤم الغرب كأننا نعيش في صحراء ، كأننا نعيش في فراغ ، كأننا لا تاريخ لنا ، لا حضارة لنا ، لا دين لنا ، ولا ثقافة لنا ، نأتي الى هذه البلاد كأقزام ، كأننا أقزام وهؤلاء عماليق ، لا يا إخواني أنتم العماليق وهؤلاء هم الأقزام ، أنتم الأساتذة وهؤلاء هم التلاميذ ، أنتم الموجهون ، وهؤلاء هم المقتطفون ، وهكذا كانوا في الزمن الماضي ، ولكننا فقدنا شخصيتنا ، فقدنا الثقة بخلود الاسلام ، فقدنا الثقة بصلاحية الاسلام ، لا لمسايرة العصر بل لقيادة

العصر ، اننا في بلادنا الاسلامية في الهند وباكستان وفي ايران وأفغانستان ، وحتى في مصر وسوريا ، لم نعرف طبيعة الحضارة الغربية وحقيقتها ، ان أساتذتنا في جامعاتنا وفي معاهدنا لم يستطيعوا ليشحنوا نفوسنا بالثقة ، وليفتحوا عيوننا على هذه الحضارة ، على مساويها ، وعلى مواضع ضعفها ، وعلى سقطاتها وعلى اخفاقها وعلى افلاسها ، فالمسئولية على أساتذتنا أكثر مما هي على عواتقنا ، ولكنكم ما دمتم قد جئتم الى هذه البلاد ، عليكم أن تعرفوا روح هذه الحضارة المادية ، الروح التي قد سيطرت على هذه الحضارة ، فجعلتها مركبا ماديا لا عقل له ولا روح له ، يجب أن تتعمقوا في دراسة هذه الحضارة ، وتقارنوا بين محاسنها ومساويها ، وبين كسبها وخسارتها ، وما هي المجالات التي يجب أن ننتفع بها وما هي المجالات التي يجب علينا أن نتجنبها وأن نفر منها فرار السليم الصحيح من المريض المجذوم ، يجب ان نعين ونحدد تلك المجالات التي يجب أن نكون فيها تلاميذ « فالحكمة ضالة المؤمن من حيث وجدها فهو أحق بها » ، يجب أن نتتلمذ على أساتذة هذه الحضارة وعلى أساتذة هذه الجامعات في هذه المجالات ، ولكن ما هي المجالات التي يجب أن نتجنبها ونفر منها ونزهد فيها ونستهين بها ونحتقرها ، انما هي مجال العقيدة ، مجال الايمان ، مجال الروح ، مجال الأخلاق ، مجال الشخصية ، مجال معرفة قيمة الانسان ، مجال الهدف الصحيح ، مجال القيم والمثل الفاضلة ، مجال الايمان بالغيب ، ومجال الشعائر الاسلامية .

حافظوا على شخصيتكم :

يا اخواني ! كونوا هنا متحفظين ، كونوا هنا على حذر ، كونوا هنا على مستوى عال ، لا مستوى منخفض ، تقدسون الحضارة وتمجدونها وتبالغون في اطرائها ، ليس هذا موقفكم ، موقف المسلم المعتز بالدين ، موقف المسلم المؤمن بالقرآن ، موقف المسلم الحامل لهذا التاريخ المشرق المجيد موقف المسلم الذي كان إماما وقائدا للانسانية وسيظل إماما وقائدا للانسانية الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لا مانع من أن تفدوا الى هذه البلاد ، أنا لست من أولئك الذين يعتقدون أن المسلم لا يجوز له أن يطأ هذه الأرض ، وأن يأتي اليها متعلما ودارسا ، لست من أولئك المغالين ومن أولئك المتطرفين ، أنا بنفسي كدارس للفلسفة والحضارة والتاريخ ، له جولات في هذه المجالات ومساهمة ضئيلة في المكتبة المعاصرة ، أقول لكم : لا تفقدوا شخصيتكم ، ولا تزدروا بقيمتكم بل قولوا كما قال سيدنا ابراهيم ـ عليه السلام ـ وكان في أمة مشركة وثنية خرافية ، وأنتم كذلك في أمة مشركة وثنية خرافية ، إنه قال :

«كفرنا بكم و بدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده » .

هكذا يجب عليكم أن تقولوا : كفرنا بكم ، تكفرون بهذه الحضارة لا تكفرون بها برمتها ولكن تكفرون بها كالحضارة الانسانية المثلى ، وكالحضارة الانسانية التي هي المثل الأعلى ،

نحن نقدر هذه الحضارة ، ونستفيد منها في بلادنا في تنظيم الحياة وترفيهها في بعض الأحيان ، وفي العلوم الصناعية ، والتجربة ، وفي العلوم الرياضية ، والتكنولوجية ، ولكننا نحترس منها ولا نقلدها في الايمان ، والعقيدة ، وفي الأخلاق .

ان هذا الخواء الروحي الذي يعانيه الغرب والذي تعانيه هذه الحضارة ، قد أصبحت منه على شفا حفرة من النار ، أو على شيء منهار ، حتى أصبحت في طريقها الى الانتحار ، ان الحضارة الغربية ـ الآن ـ في طريقها الى الانتحار ، وكما يقول الدكتور محمد اقبال : ان كل أمة حرمت الهداية الربانية ، وحرمت التوجيه السماوي ، منتهى كمالها ورقيها البرق والبخار .

إن الافرنج أو إن الغرب هو مسودّ قاتم ، بدخان المصانع وبدخان هذه الفبريكات ، ان هذا « الوادي الأيمن » لا يصلح للتجلي الالهي .

ولكن مع الأسف الشديد كان من حظ هذه البلاد ، النصرانية ، ثم كان من حظ هذه البلاد الاعتماد والتركيز على الجانب الصناعي ، وعلى الجانب المادي ، هذا هو سر شقاء الانسانية ولذلك أصبح العالم ثائراً الآن ، وقد كتب عليه الاضطراب والقلق ، والفساد الخلقي ، والافلاس الروحي ، والتأرجح بين مادية جامحة رعناء ، وبين رهبانية مغالية خرقاء .

قولوا لأهلكم اذا رجعتم اليهم : هذه الحضارة سراب خادع :

يجب عليكم أن تعودوا الى بلادكم لتقولوا لها ، ولشبابها ،

وللمثقفين فيها : قد سبرنا الحضارة الغربية ، وقد عجمنا عودها ، وقد اكتوينا بنارها ، وقد عشنا في قلبها ، فعرفنا افلاس هذه الحضارة واخفاقها ، ترجعون اليهم لتكشفوا لهم سر هذه الحضارة ، ولتقشعوا هذا السحاب الذي قد غشى أبصارهم ، ولتبخّروا هذه الثقة الزائدة ، وهذا التقديس الذي يحملونه لهذه الحضارة ، ولتملكوا زمام بلادكم فتقودوها الى الاسلام .

يجب عليكم أن تعيدو الثقة فيهم بصلاحية الاسلام ، وبصلاحية العلوم الاسلامية ، وبخلود الرسالة الاسلامية ، ولتقولوا لهم قد عرفنا الغرب أكثر مما عرفتم ، وقد نشأنا وعشنا فيها سنين طوالا ، وعرفنا أنها حضارة جوفاء ، هذه الحضارة كسراب خادع ، «كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه » ، وتقولوا للمتعلمين في الجامعات هناك الذين ينظرون الى الغرب ، كأنه هو المثل الكامل ، وكأنه هو السماء وهم على الأرض ، وكأنه قمة جبل وهم يتطلعون اليها كما يتطلع طفل صغير ، وقد وقف في سفح الجبل ، فهو ينظر الى قمة الجبل كأنها السماء الأعلى ، تقولون لهم ، لا يا اخواننا ، ليس الأمر كذلك ، بل هو بالعكس .

هذه كلمتي لكم ، لعلها تحرك فيكم ساكنا وتثير فيكم كامنا ، وتحملكم على تقدير نعمة الله ـ تبارك وتعالى ـ لما أكرمكم الله به من نعمة الاسلام ، أسأله ـ تعالى ـ التوفيق لي ولكم ، وأسأل الله ـ تعالى ـ الاستقامة لكم في هذه البلاد ،

وأن تكونوا مسلمين بكل معنى الكلمة ، محافظين على الصلوات محافظين على الواجبات الدينية ، وعلى الشخصية الاسلامية ، محافظين على العادات الاسلامية الجميلة المقتبسة من القرآن والسنة ، وأن تكونوا هناك هداة أئمة موجهين مرشدين ، لا تلاميذ متطفلين .

أسأل الله تعالى لي ولكم التوفيق وأن يثبت أقدامكم هنا في هذا المزلق حيث تزل الأقدام وتزول الجبال الراسيات ، وأن يأخذ بأيديكم وأن يربط على قلوبكم ، وأن يشعل فيكم جمرة الايمان حتى تعيشوا ما بقيتم هنا مسلمين وترجعوا الى بلادكم ـ اذا عدتم اليها مع سلامة الله ـ مسلمين دعاة متحمسين أكثر مما أنتم عليه الآن . ـ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المدنيات المعاصرة في مرآة القرآن

(خطبة جمعة في جامع «تورنتو»
Toronto بكندا في احدى صلوات الجمعة
(في ٢٢/ جمادى الآخرة ١٣٩٧ هـ ـ
١٠/ يونيه ١٩٧٧ م) لدى زيارة المؤلف
الأخيرة لأمريكا وكندا).

أما بعد! فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا».

ان القرآن كما يعلمه الجميع وكما نؤمن به، كتاب الله المعجز الخالد الذي لا تبلى جدته ولا تنقضى عجائبه، وأنه جديد طريقي في كل عصر ولكل عصر وفي كل دور من أدوار الحياة ولكل جيل، وأنه المرآة الوضيئة الصافية التي ينظر فيها الأفراد والأمم وينظر فيها الأجيال البشرية كلها وجهها صافيا نقيا، وقد قال الله تبارك وتعالى مخاطبا لبني آدم مخاطبا لكل من جاء ويجيء بعد نزول القرآن وبعد البعثة المحمدية «لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون» فانه الكتاب الذي

فيه الحديث عن كل دور من أدوار الحياة ولكل جيل من أجيال البشرية ، وفيه التوجيه والارشاد والقيادة لهذه الأجيال ، وانه مجموع سور ناطقة حية دائمة .

اذا سئلت ما هي السورة التي تصف هذا العصر وصفا دقيقا وتصف هذه الحضارة التي اتسمت بالمادية بالاعتماد على المحسوس المشاهد وانكار الحقائق الغيبية وما وراء هذه الحياة ، والتي اتخذت المادية والرقي المادي صنما يعبد ومثلا أعلى يقتدى ، والغاية الأخيرة والغاية النهائية ، والمثل الكامل والمقصد الأسمى ، قلت : هي سورة الكهف ، فقد افتتح الله هذه السورة الكريمة بقوله تعالى : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا » ، ان سمة هذه الحياة ، وان سمة هذه الحضارة التي نعيش في مركزها اليوم ، وهو الغرب ، بأوسع معاني الكلمة ، ان سمة هذه الحضارة هو الاعتماد الزائد والتركيز ، والشغف والولوع الزائد بالزينة والبهرجة والطلاء الخداع والمظاهر الجوفاء والاستهانة بما وراءها والاستهانة بالحقيقة ، فقال الله تعالى مفتتحاً هذه السورة الكريمة : « انا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا » ، ثم يقول مخاطبا نبيه ﷺ في هذه السورة الكريمة : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » ، ان هذا الجيل الذي نعيشه ، ان هذا الجيل الذي نعاصره هنا ونواجهه هو الجيل الذي قد غفل أو تغافل عن

ذكر الله تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) انه متبع هواه (وكان أمره فرطا) ، انه يمتاز بالتفريط والافراط في كل شيء ، يحب النهاية ويحب الطرافة ويحب الجدة ويحب الوصول الى آخر المدى ؟ (وكان أمره فرطاً » .

ثم يقول : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدرا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » .

ثم ختم الله هذه السورة بقوله تعالى « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » ، ان النقطة المهمة ، النقطة البارزة التي تلفت نظرنا وتسترعي انتباهنا ، ويجب أن تسترعي انتباه جميع المتدبرين في القرآن هو قوله تبارك وتعالى : « وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا » ، امتاز قادة هذه الحضارة والذين يملكون زمامها اليوم والذين اختطوها ورسموها بأنهم كانوا على حسن ظن بأنهم على خير وكانوا يعتقدون في كل دور من أدوار رقي هذه الحضارة وتقدمها أنهم يحسنون صنعا ، انهم يسيئون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، انهم يهدمون ويعتقدون أنهم يبنون ، انهم يخربون ويعتقدون أنهم يشكلون ويكوّنون ، انهم يفسدون ويعتقدون أنهم يحسنون الى الانسانية والبشرية فهذه الحقيقة ، هذه النقطة التي تتحدانا والتي تتحدى

قادة هذا البلد وهذه البقعة التي تتحكم الآن في مصاير الأمم وتتحكم في أوضاع المدنية وفي مخططاتها وفي مشاريعها ، فانهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

ولذلك كان الدجال الأكبر الذي نبه به رسول الله ﷺ وحذر أمته منه هو زعيم هذه الحضارة الاكبر ، هو الذي يتولى قيادتها ويتولى كبرها ، ويدعو اليها ، إنه رمز هذه المادية الأكبر ، ولذلك جاء في الأحاديث الصحيحة التي رواها أصحاب الصحاح أن رسول الله ﷺ حث أمته على قراءة هذه السورة وقال ان قراءتها تعصم من فتنة الدجال ، لأن هذه السورة هي تضرب على الوتر الحساس ان هذه السورة هي التي تضع الإصبع على موضع الداء ، ان هذه السورة الكريمة المعجزة هي التي تجسد الأخطار التي تحلق على رأس البشرية عن طريق هذه المدنية الزائفة ، وعن طريق هذه المدنية الراعنة ، وعن طريق هذه المدنية المتطرفة المغالية .

فهذه السورة هي سورة هذا العصر بصفة خاصة وان كانت هذه السورة تشتمل على معاني كثيرة وعميقة وواسعة فان فيها حظا لكل ملتمس للهداية ولكل طالب للنور ولكل مقبل على الله تعالى ، ولكن هذه السورة بصفة خاصة تدور حول هذه النقطة التي يدور حولها هذا العصر فان الأمثال والقصص التي جاءت في هذه السورة كلها تدور حول هذا القطب وهذه النقطة الرئيسية فان أصحاب الكهف هم الذين تمردوا على المدنية التي كانت ذات سيطرة وغلبة في عهدهم اذ قالوا : « فقالوا ربنا رب

السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً ، لقد قلنا اذاً شططا ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين » .

ثم قصة الرجلين ، الرجل الذي عكف على الحياة وعبدها وشغف بها وجن بها جنونا ، وأنكر ما وراءها ، ثم قصة موسى والخضر ، فان الخضر كان يأتي بعجائب تتحدى المحسوس تتحدى المنطق الذي لا يؤمن الا بالمحسوس المشاهد ، فاذا وراءه حقائق أخرى حقائق غيبية تتضح لموسى عليه السلام حينما يرفع الستار ، ثم قصة ذي القرنين كذلك هو الذي سخر الله له الطاقة ، سخر له وسائل كثيرة ثم استخدمها في صالح الانسانية وفي صالح المدنية ، ولم يغرّ بها غروراً ولم يغتربها اغترارا بل كان يملك زمامها وما كانت تملك زمامه ، كما هو الشأن الآن في قارة المدنية الأوربية الغربية التي نعيشها هنا ونعيشها في كل مكان .

نسأل الله التوفيق والهداية وصدق الله العلي العظيم : « ولا تمدّنّ عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ، وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى » وصدق الله العلي العظيم وصدق رسوله الكريم .

ماوجدته في أمريكا.. وما افتقدته

(ألقيت هذه المحاضرة في مركز الجالية
الاسلامية بشكاغو Muslim Community
Centre, Chigago.
في ١/ من رجب ١٣٩٧ هـ ـ ١٩/ يونيه
١٩٧٧ م في أردو ، نقلها الى العربية
الأستاذ نور عالم الأميني الندوي) .

قال بعد ما حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه وسلم :
سادتي وإخواني ! قال الشيخ جلال الدين الرومي في مقطوعة شعرية له ـ وقد افتتح بها شاعر الاسلام الدكتور محمد اقبال كتابه « أسرار خودي » وحلّى بها صدره :

« رأيت البارحة شيخا يدور حول المدينة ، وقد حمل مشعلا ، كأنه يبحث عن شيء ، قلت له : ياسيدي ! تبحث عن ماذا ؟ ، قال : قد مللت معاشرة السباع والدواب ، وضقت بها ذرعا ، وخرجت أبحث عن انسان في هذا العالم ، لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالى والأقزام ، الذين أجدهم حولي ، فخرجت أبحث عن عملاق من الرجال ، وبطل من الأبطال ، يملأ عيني برجولته وشخصيته ، ويروّح نفسي .

قلت له : لقد غرتك نفسك يا هذا ! فخرجت تقتنص العنقاء بالله ! لا تتعب نفسك ، وارجع أدراجك ، فقد أجهدت نفسي ، وأنضيت ركابي ، ونقّبت في البلاد ، فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثرا ، قال الشيخ : اليك عني ، أيها الرجل ! فأحب شيء الى نفسي ، أعزه وجوداً وأبعده منالا » .

أنتم تعلمون أني قمت بزيارة هذه البلاد ، على دعوة من منظمة الطلاب المسلمين .M.S.A ان هذه البلاد كانت كعالم جديد لي ، ولا أقول : انه اكتشاف كاكتشاف «كولمبس» للعالم الجديد ، واني أشكر .M.S.A على أنها أتاحت لي فرصة الطواف في أرجاء أميركا ، وكندا ، أزورها من أقصاها الى أقصاها ، وأشاهدها بأم عينيّ ، وأحتكّ بالشعب وأجتمع بأفراده ، وأتحدث اليهم ، وأتعرف عليهم ، وأطلع على أوضاعهم وملابساتهم قدر ما تسمح به هذه الاقامة القصيرة ، وقد قمت بزيارة « نيويورك » كما قمت بزيارة « كندا » ، وأميركا الشمالية ، وقطعت مسافة طويلة ، مسافة تمتد على خمسة آلاف ميل ؟ أو أكثر ، وها أنا ذا أمامكم في ختام هذه الزيارة ، فهذه المدينة هي المنزل الأخير في رحلتي ، وأظنكم تحنون الى الاستماع لانطباعاتي وخواطري عن هذه الزيارة .

ربما كان لي أن أتحدث ـ بصفتي من سكان البلد المتخلف عن ركب التقدم ، لا بمراحل بل بمسافة قرون ـ اليكم عن واقع النهضة والتقدم وقصة الرقي في هذه البلاد ، لكني أترك ذلك وشأنه ، فأنتم أعلم بذلك .

تلوت عليكم مقطوعة لمولانا جلال الدين الرومي ، وربما كان ذلك خلاف ما كان يتوقعه كثير من الاخوان والأخوات ، لم يكن مولانا جلال الدين في عصر التخلف ، ولا من بلد متخلف في التقدم البشري ، بل كان بلده من المدن الراقية في العالم الراقي المتمدن المعمور في ذلك العصر ، قد تأسست فيه حضارة جديدة منذ وقت قريب ، وكان مستعداً لاقامة دولة عظيمة ـ هي الدولة السلجوقية ـ ، وقد أنجب نوابغ وعباقرة في الشعر ، والأدب ، والفلسفة ، وقام بتوجيه المدنية والوصاية على القطاع الشرقي للعالم ، وخلّف آثاراً خالدة ، ومعالم ثابتة على وجه الأرض ، هي مدينة « قونية » ، وكان أصله من ايران ، التي يصح أن ندعوها « يونان الشرق » [١] .

غير أن الشاعر قد عبّر في مقطوعته عن شعوره الجريح ، وقلبه المكلوم ، انه يحكي عن شيخ رائد للحقيقة ، ولكنه يعني نفسه ، ويروي قصته ، ويقول : « اني أنا الانسان البائس المسكين ، في هذه المدينة الحافلة العامرة ، الزاهية الزاهرة ، وفي هذه المنطقة المتمدنة الراقية ، خرجت أبحث عن إنسان في العالم ، فاني أجد كل شيء ، ولا أجد انسانا ، فأرى قصوراً شامخة ، ومدناً فاتنة ، وحدائق غناء ، ومنتزهات ساحرة ، وجبالا تناطح السحاب ، وتنوعا في المطاعم ، وتفنناً في الملابس ، وتلونا في مظاهر المدنية والحضارة ، أرى كل ذلك ،

---

(١) نزح أبوه من بلخ إلى الأناضول وأقام في قونية .

ولكني لا أرى شيئا ، هو الانسان ، أما الانسان الذي نراه ، فهو شبه الانسان ، ليس بانسان ، ويضيف قائلا في بيت آخر : « أما الذين نراهم ، فهم أشباه الرجال ، لا رجال ، لأنهم عباد البطن ، وصرعى الشهوات » .

موجة الماكينات :

اني تجولت في أمريكا شرقا وغربا ، وشمال وجنوبا ، فرأيت فيها تقدم الماكينات ، وكل ما ترون في هذه البلاد من نشاطات وانتعاشات ، يرجع الفضل فيه الى العلوم الرياضية والتكنولوجيا ، والهندسة ، والصناعة والحرفة ، وبلغت هذه الفنون في هذا البلد قمتها ، وأطرفت الانسان بكل ما كانت تستطيع أن تطرفه به ، من وسائل وتسهيلات ، وترفيه وتسلية ، وأسباب العيش والراحة والترف ، والرقي والازدهار .

وهنا نتساءل : هل يوجد في هذا البلد ــ الغاصّ بالسكان ، والباذخ بالعمران والذي بلغت مدنه من كثافة السكان وزحمة الانسان الى أن لا يكاد المرء يجد طريقه على الشارع ــ إنسان حقيقي يحمل في صدره قلباً خفاقا ، ويملك عيناً ساكبة للدموع ، حزناً على الانسانية البائسة المنكوبة ، ويتحرق ألماً للانسان الضائع ، ويتجرد عن الشهوات ، ويتمرد على الأهواء ، ولا يستسلم لهذه المدنية ولا يخضع لها ، بل هو يخضعها ، ويسخرها ، ويركب على أعناقها ، ولا يلقى حبله على غارب الحياة ، بل هو يمسك بزمام الحياة ، فلا تقسو عليه ، ولا تجمح لديه ، ولا تسوقه ، ولا تهرع به ، بل هو يقهرها ، ويتملكها ،

ويوجّهها كيف يشاء .

أين هذا الانسان ، الذي يعرف خالقه ، ويعبد ربه ، ويعيش في حبّه ، وفي حب الإنسانية واحترامها ، ويتملك نفسه الأمارة بالسوء ، ويحيا حياة متقشفة زاهدة ، بسيطة قريبة من الفطرة ، ويتذوّق اللذة الحقيقية ، ويذوب حدباً على الانسانية الشقية ، ويتأذى من تمزق الأمم ، واصطدام الأفراد والدول ، ومن الأثرة والأنانية ، والنفعية والانتهازية ، ويتألم من نكبة تصيب دولة من الدول ، ويسعى لترقية جميع العباد والبلاد ، ويخلص في خدمة البشرية بأجمعها ، ويحب الاعطاء ، ويندفع الى البذل والسخاء ، ولا يكتحل بنومٌ بكاءً على بؤس الأمم والدول ، ولا يؤمن بالفلسفة القائلة : «كل وعش وانعم» ، بل يشعر بعد إطعام أخيه الإنسان ، مع جوع نفسه ، بلذة تفوق كل لذة ، وبراحة لا تعد لها راحة ، ويعتقد أن الانسانية أغلى وأكرم وأشرف شيء في الحياة .

والذي لا يمعن في تعمير نفسه وبلاده فحسب ، بل في تعمير الإنسانية ، ويودّ أن يرى العالم كله كأسرة واحدة في تضامنها ، واتحادها ، لا على صعيد الأمم المتحدة ودستورها ، بل على صعيد الانسانية الحقيقي الطبيعي ، والذي يعرف مبدأه ومصيره ، ويعير ذلك اهتمامه ، ويؤمن بأنه ليس كهوام الأرض ، تصبح ترابا بعد الموت ، بل هو يؤمن بأن له نهاية سوف ينتهي اليها ، وسوف يسأل عن المواهب والصلاحيات التي جهزه الله بها .

لقد استطاع الانسان أن ينفخ روح الحياة في الحديد وفي الجمادات ، واستطاع أن يسخر الأجواء الفسيحة بين السماء والأرض ، وأن يغوص في أعماق الأرض ، وأصبح يستخدم أشعة الشمس في أغراضه ، واطلع على أفلاك القمر والكواكب والنجوم ، وقد وصل أخيراً إلى القمر ، وهبط عليه فعلا ، لكن كل ذلك ليس مما يدل على الكمال الانساني الحقيقي ، ليس الكمال أبداً في أن ينفخ الانسان في الجمادات روحا ، ويجعلها ناطقة حية ، بل الكمال في الواقع أن ينفخ في نفسه الروح ، ويجعلها حية تنطق ، الانسان خليفة الله في الأرض ، ونائبه في الكون ، فمنصبه أسمى وأعلى ، وأجل من أن يكون عبداً للجمادات ، بل هو الجدير بأن يستعبدها ، لا لنفسه فحسب ، بل لله خالقه وربه ، فيستخدمها في تحقيق ما يريد الله من هذا الإنسان وهذا الكون .

أسير القفص الذهبي :

نرجع فنتساءل : كم ذلك الانسان الذي لا يرى تقدمه في تأسيس الدول والحكومات ، واستعباد العباد والبلاد ، وبسط النفوذ ، وقهر النفوس ، وإخضاع الأمم والشعوب ، بل يريد ان يعمل للانسانية بكل اخلاص وايثار ، متجرداً عن الأغراض والمنافع ، لأنه قد ربط مصيره بالانسانية ويرفض بكل قوة أن يعبد حكومة من الحكومات ، أو حزبا من الأحزاب ، بل يحاول أن يخرج الشعوب والأمم من عبودية

النفس وعبودية الأهواء والشهوات ، وعبودية القوة والمادة ، وعبودية المال والثروة ، وعبودية العلم والعقل ، والذي يستطيع أن يقول بكل قوة واعتزاز ، أمام العالم ما قاله ذلك الأعرابي الذي قد سما به الاسلام من الفرش الى العرش ، ومن الثرى الى الثريّا ، فجعل يحلق في أجواء فسيحة :

« الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، فأرسلنا بدينه الى خلقه لندعوهم اليه [1] » .

يقول بدوي في بلاط « رستم » ـ قائد قواد الفرس ، ووزير الحربية في إيران ، الذي كان اسمه يخلع القلوب ، ويذهل النفوس ، ويدهش الجنود ـ : « ابتعثنا الله لنخرج الناس من ضيق الدنيا الى سعتها ، الدنيا التي أسميتموها بامبراطورية ايران ، والدولة الساسانية ، فاننا نراها قفصا ، والقفص قفص ، ولو كان من ذهب ، وأسلاكه كلها من ذهب ، فأتينا نرثي لكم على حالكم ، ودفعت بنا عاطفة الحدب والعطف من صحراء العرب الى هذه البلاد ، أيها الفرس الأشقياء المنكوبون ! أتينا لنخلصكم من هذا القفص الذهبي الذي تشدون فيه وتتغردون ، وتبتسمون كعندليب الى أرض الله الواسعة ، والى أجواء الحرية المترامية اللامتناهية ، فقد استعبدتكم العادات والالتزامات ، واستعبدتكم الأسباب والتسهيلات ، واستعبدكم موفّر والترفيه والتسلية ،

---

(١) البداية والنهاية لأبن كثير ، ج / ٧ ، طبع بيروت ، ١٩٦٦ م .

واستعبدكم المغنون ، واستعبدكم عبيدكم ، واستعبدكم طهاتكم وطباخوكم ، واستعبدكم سقاتكم ، واستعبدتكم جدرانكم وحيطانكم ، أما نحن فلسنا الا عبيد الله ، فأتينا لنخرجكم من هذه العبوديات التي لا يحصيها الا الله ـ لأن الحاسب الالكتروني لا يحصي الا المحسوس الظاهر ، ولا يستطيع أن يحصي غير المحسوس الباطن ـ فانه اذا خالطت العبودية القلب ، وامتزجت باللحم والدم ، وأصبحت طبيعة لا تبرح الانسان في الظاهر والباطن ، حتى أضحى لا يعيش الا بها ، لأنه شغف بها ، وأحبها وعشقها ، وآثرها على الحرية ، فأنّى للحاسب الالكتروني أن يحصيها ، ويسبر غورها ، ويعلم مداها ، يقول : فأتينا لنخرجكم من هذه العبوديات التي تفوق العد والاحصاء ، الى الحرية الواحدة .

النور فرد والظلمات كثير :

والحرية واحدة ، أما العبوديات فلا آخر لها ولا نهاية ، كما ان النور واحد والظلمات كثير ، ولذلك نرى القرآن كلما يذكر النور يأتي به فردا ، « يخرجهم من الظلمات الى النور » ، أفلا يجمع النور في اللغة العربية على زنة « أنوار » ، كما تجمع الظلمة على زنة « الظلمات » ، أفهل كان القرآن لا يسعه جمع النور ، كلا ! ليس ذلك الا لأن النور في الواقع فرد ، والظلمات لا يأتي عليها الحصر .

ومصدر النور واحد ، وهو معرفة الله ، فمنها ينبثق النور

والهداية ، وقد ذكرتنا زيارة هذا البلد ببيت الدكتور محمد اقبال ـ ذلك الذي قد درس الحضارة الغربية دراسة وافية ، عميقة تحليلية ، وأحاط بجوانبها ، واطّلع على دخائلها وأسرارها وابعادها ، وجوانب الضعف فيها ـ يقول فيه : « ان الأمة التي لا نصيب لها من التوجيه السماوي والتنزيل الإلهي ، غاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار ، » ويقول في بيت آخر : « لقد تضخم العلم وتقدمت الصناعة في اوروبا ولكنها بحر الظلمات ليس فيه عين الحياة » .

هناك أسطورة قديمة تقول : « ان عين الحياة توجد في بحر الظلمات ، ويقال ان الاسكندر قد جعل خضراً دليله ، ليوصله الى شاطيء عين الحياة في بحر الظلمات ، لكن الخضر بلّح عليه وعجز عن هذا العمل ، والى ذلك يشير اقبال في شعره ، ويقول : « ان أوربا بحر الظلمات وعالم الظلمات ، ولكن ليست فيه عين الحياة » .

وما مصير الأمة التي لاحظّ لها من التوجيه السماوي ولا نصيب لها من نور الهداية والرسالة والنبوة ، واستندت الى علمها وعقلها ، وانصرف كل همتها وذكائها الى الحديد والجمادات والفولاذ والآلات ، وركزت جهودها وذكاءها ومواهبها على الكون والآفاق ، متفادية من عالم الانفس ، فاستطاعت ان تسخر الجمادات ، ولم تستطع ان تسخر نفسها ، واستطاعت ان تسخر الكون ولم تستطع ان تسخر روح الكون .

قد اعتبرت أوربا التقدم المادي هدفها الأسمى في الحياة ،

وجعلته نصب عينيها ، فكتب الله لها فيه الانتصار واحرزت في ذلك نجاحا لا بأس به ، وقطعت أشواطا بعيدة وضربت فيه بسهم وافر ، كسنة الله في الأرض ، فقد جرت سنة الله في الكون أنه يساعد البشر ويوفر له أسباب النجاح مهما اختار مجالا من مجالات العمل ، وكل ما في الأمر هو انتخاب مجال العمل ، واختيار مضمار النشاط والاجتهاد .

المسيحية لا تنسجم مع المجتمع الأوربي :

قد انصرف اتجاه أوربا الى المادية ـ لأسباب لا تعنينا في هذه المناسبة ، وكل من ألمّ بتاريخ أوربا وتاريخ نشوء وارتقاء الحضارة الأوربية والمدنية الغربية ، وقرأ ما كتبه المؤرخ الأمريكي «درابر» في كتابه «الصراع بين الدين والعلم» وتتبع قصة «الكنيسة» و «قيصر» وقصة الحروب الدامية التي استمرت في أوربا بين الدين والعلم طويلا ، كل من اطلع على ذلك يعرف جيدا كيف دخلت المسيحية أوربا واعتنقها الأوربيون بجهود وتضحيات قام بها المبشرون والدعاة المسيحيون ، ثم كيف تكونت عفواً تلك الأسباب التي دفعت أوربا الى المادية الرعناء بعد ما دامت الحرب بين العلم والكنيسة مدة طويلة ، لأن الغرب قد اشمأز من الدين فقد كان الدين يقعد به ويثبطه ، ويدفعه الى الوراء ، على حين كانت طبيعته المتحمسة المتطلعة الطموحة تندفع به الى الأمام بقوة وحماسة ، وعاطفة جياشة ، وكانت القوى الطبيعية تزيح الستار عن مخابيء القدرة

الالهية والامكانيات الهائلة للتقدم والانطلاق ، وكانت الأمم تتنافس في مضمار الرقي وتتسابق الى احراز قصب السبق ، كل ذلك كان يبعث أوربا على السير الحثيث والاندفاع القوي السريع الى الأمام ويشجعها على أن تستخدم الذرة من ذرات الكون وأن تستغل ما أودعه الله فيه من ذخائر وموادّ ، وقوى وطاقات ، وأن تحول التراب ذهبا وتجعل الجمادات ناطقة حية تتحرك .

على كل فكانت الطبيعة الأوربية ، والتحولات ، والتطورات ، والانقلابات ، التي كان يشهدها العالم ، تتطلب أن تختار أوربا من مجالات العمل ، ما تبذل فيه مواهبها وذكاءها وكفاءاتها ، دون حد وقيد ، ولا تحتاج فيه الى الاستيحاء من الكتاب المقدس ، والاستفتاء من رجال الكنيسة فيما يتصل بالحلال والحرام ، اذاً فكان من سوء حظ أوربا ، وبالتالي من سوء حظ الانسانية ، أن كانت قد اختارت المسيحية كدين لها وعقيدة .

واذا سئل من درس تاريخ العقائد والديانات ، عن ديانة لا تنسجم مع المجتمع الأوربي ، ولا تتجاوب مع طبيعته وعادته في قليل أو كثير ، فسيجيب بكل اقتناع وثقة ، أنها هي الديانة المسيحية ، لا غير ، وإذا تساءلنا : ما هي الديانة التي تستطيع أن تعيد إلى الطبيعة الأوربية المضطربة القلقة الجامحة ، قرارها وهدوءها ، وأن تركزها على الاتجاه الصحيح ، وأن تخفف من غلوائها وجماحها ، والتي تستطيع أن تجمع بين

الوسائل والغايات ، وأن توفق بين الأسباب والأهداف ، وتتخذ خطة للإنسانية جديدة ، وتهبها دما جديدا ، وتنصرف بالبشرية بأسرها الى الاتجاه الصحيح المستقيم ؟ فسيكون الجواب الوحيد لدى كل من ينشد الحق والصواب ، ويحب العدل والإنصاف ، أن ذلك هو الاسلام ، ليس إلاّ .

ولا غرو فإن الإنسان لدى المسيحية مذنب بالولادة والفطرة ، فكيف يتمشى مع ركب المدنية وهو مثقل بالمعاصي والذنوب الفطرية ، ويئن تحت وطأتها ، ويجب عليه أن يعتقد ـ بصفته مسيحيا ـ أنه مذنب بالفطرة ، فكيف يعتمد على نفسه ، ويثق بذاته ، ومواهبه ، وكيف يستطيع أن يسخر الكون ؟ وإذا كان هو مذنبا ، غارقا ، في حمأة المعاصي والآثام إلى الآذان ، نادماً على صنيعه ، فكيف يمكنه أن يجابه الكون ، ويستخرج القوى الطبيعية من أعماق الأرض ، ويسخر البحر ، ويشق أمواجه ، ويحلم بالوصول الى القمر ، والكواكب والسيارات .

إذا اعتقد إنسان أنه عاص بالولادة ، قد كتبت له الذنوب والمعاصي ، وهو في حاجة الى كفارة عن ذنوبه ، فكيف يطمح أن يقوم برحلة الفتوحات الكونية ، وأنى له أن يحلم بغزو الكون ، والاكتشافات العلمية ، بجرأة واعتزاز ، وشجاعة واعتماد ؟

والواقع أن ذلك كان سعياً وراء الجمع بين متضاربين ، ومحاولة توفيق بين متناقضين ، تناقضا ينقطع نظيره ، فكان

كمن يركّب حصانين في عربة ، أحدهما أمام العربة وآخر وراءها فهما متقابلان تماما ، فهذا يجرّها الى الأمام وذاك يجرها الى الخلف ، فكانت أوربا بطبيعتها المتحمسة ، تنطلق بشدة وحدّة الى الأمام ، وكانت المسيحية تدفعها بنفس الشدة والقوة الى الخلف ، تدفعها الى الرهبانية ، والى الفرار من الحياة ، وكانت رجال الكنيسة ينادون بأن سر تقدم الإنسانية في العزلة من الحياة ، وضوضاء المجتمع البشري ، وإن كان الإنسان يريد الرقي الروحاني ، فليلتجيء إلى الجبال والمغارات والكهوف ، وليقف حياته على الكنيسة ، وليضرب الحياة العائلية عرض الحائط ليعتزل المرأة ، وليتجنب ظلها ، وليتحاش عن النظر اليها ، اقرأ كتاب « ليكى » يدلّك على أن الأوربي كان يفر من ظل المرأة ولو كانت أمه ، كانت الأم تقوم برحلة طويلة ، وتقطع مسافة طويلة لتقرّ عينيها بنظرة الى ولدها وفلذة كبدها ، وكان الولد يتستّر عنها ، فور علمه بوصولها ، ويفر عنها ، كما يفر أحد من العفريت والجن ، وكانت الأم البائسة المسكينة تتراجع أدراجها ، بقلب متكسر ، دائم الحسرات ، أفهل يوجد في العالم نظير لهذه القساوة والشقاوة ؟ ! .

تلك هي المسيحية التي منيت بها أوربا وأمريكا ، فكان أن لما بلغ السيل الزبى وطم الوادي على القرى ، قررت الثورة على الكنيسة ، والتحرر عن عبوديتها ، ومن الدين أيّا كان ، لأن كل ذلك ـ فيما كانت تعتقد هي ـ يقف حجرة عثرة في سبيل النهضة والرقي ، فرفضت كل ما يمت الى الدين بصلة ،

وقطعت آخر خيط كان يربطها بالكنيسة .

هذا وبالعكس قد بدأ انحطاط العالم الاسلامي منذ أن قطع صلته عن الدين ، حقيقتان واضحتان : ما بلغت أوربا شأوا بعيداً من التقدم إلا حينما رفضت المسيحية ، وما انهار العالم الاسلامي إلا بعد ما طوى كشحه عن تعاليم الاسلام ، وزهد فيها وانصرف عنها .

عبيد الماكينات :

على ذلك ، فعادت أمريكا تعبد الماكينات وتخضع للآلات ، وبسطت أمريكا نفوذها على الشرق والغرب ، وأصبحت أخيراً تملي على العالم ارادتها وتتدخل في السياسة الدولية ، وتديرها كيف تشاء ، أصارحكم أيها السادة ! وأنا في قلب الولايات المتحدة ، أن دول العالم كلها ـ بدون استثناء ـ اسلامية كانت أو غير اسلامية ، خاضعة لأمريكا ، مرتبطة بعجلتها ارتباط العبيد بالسادة ، تابعة لها ، بوجه من الوجوه ، وبطريق مباشر ، أو غير مباشر ، ههنا تتخذ تلك الخطط والمشاريع التي تطبق في بلادنا وأراضينا ، وبيد قادتنا وزعمائنا .

ولئن كانت أمريكا استعبدت العالم كله ، فاذا هي الأخرى تعبد الأجهزة والآلات وتعبد هذه البيئة ، وتعبد هذا المستوى للحياة Living Standard وتعبد ماكيناتها وأدواتها التي لا تستطيع أن تعيش بدونها .

مزايا الجمادات وطبيعتها :

والشيء الوحيد النادر المفقود الذي لا أجده ، هو الإنسان ، ذلك الإنسان الحقيقي الذي يحمل في صدره قلبا ، حيا ، نابضا ، متدفقا ، لا ماكينة متحركة ، فقد خضع الإنسان لحياة الماكينات خضوعا جعله لا يفكر إلاّ في الماكينة وأصبحت خواطره ومشاعره كلها ماكينات ، وتتّسم بمزايا الجمادات والفولاذ ، فلا رقة فيها ولا مرونة ، ولا لين فيها ولا نعومة ، وقد بعد عهد العيون بالدموع ، وعهد القلوب بالخشوع ، تلك هي الحقيقة التي لمستها في الولايات المتحدة الأمريكية .

كونوا على حذر من أن تذوب شخصيتكم :

وأوصيكم ـ قبل أن أغادر أمريكا ـ أن لا يبهرنكم بريق هذه الحضارة ، فالشجرة التي أنتم ثمارها ، هي شجرة من نوعها الخاص ، هي شجرة النبوة ، فعيشوا في هذا المجتمع ، ولكن لا تخضعوا لها ، وتمتعوا بهذه الأرض وبهذه الحياة ، ولكن لا تكونوا عبيد هذه الحضارة ، وهذه المظاهر الجوفاء ، لست أفتي بأن ما تصنعون حرام ، وإقامتكم في هذه البلاد حرام ، ولكن أقول : لا ترعبنكم هذه المادية ، بل احتفظوا برسالتكم واعتزوا بشخصيتكم ، واحفظوها من الذوبان والانحلال ولا تبهركم هذه البهرجة الخادعة ، والمدنية الزائفة ، ولا تحتقرنّ دينكم وعقيدتكم ، ومثلكم وقيمكم وحضارتكم ومجتمعكم ، لا تظنوا أنكم حيوانات ودواب ، وهؤلاء إنس

وبشر ، اذكروا ما يقوله شاعر الإسلام الدكتور محمد اقبال :
« أظلم الجو في عواصم أوربا ـ بدخان المصانع المتصاعد الكثيف ، ولكن بيئتها ـ على كثرة أنوارها ـ غير متهيئة لفتح جديد في الفكر واشراق من عالم الغيب .

عبيد الأصنام التي نحتوها بأيديهم :

ان هؤلاء يعبدون عاداتهم وأعرافهم ، ويعبدون الآلات التي يصنعونها بأيديهم ، يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العظيم ، على لسان نبيه ابراهيم ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ بأسلوب ساذج بسيط : « أتعبدون ما تنحتون » ، يصنع ههنا اليوم شيء ، ويوضع مقياس ، ويتخذ مبدأ ، وتصاغ ماكينة ، فتصبح البلاد كلها خاضعة لها ، تعبدها ، وتكفّر لها ، إن هذا البلد مركز « آزر » صانع الأصنام وسادن بيتها ، فهو بحاجة ملحة الى الأذان الإبراهيمي ، ولا يُؤذّن هذا الأذان إلا أنتم أيها المسلمون ! لأنكم أتباع ابراهيم في الواقع لا اليهود ، لأنهم انحرفوا عن طريقه ، ولا النصارى لأنهم يتبعون اليوم مسيحية « بولس الراهب » ، وليسوا من مسيحية عيسى ومريم عليهما السلام في شيء ، وقد نجحت المؤامرة الخطيرة التي دبّرت ضد المسيحية ـ وربما لم تنل مؤامرة ما ضد أي ديانة هذا النجاح الباهر ـ وانصرفت بها عن الجادة التي سلك عليها المسيح عليه السلام ودعا اليها الى مسيحية « بولس » تماما ، فالمسيحية اليوم ـ سواء أكانت كاثوليكية ، أو بروتستانية ، هي المسيحية « البوليسية » .

فليس المسيحيون خلفاء ابراهيم عليه السلام ، بل أنتم خلفاؤه ، وأتباعه ، فنقول لكم على لسان الدكتور محمد اقبال :
« يا باني الحرم ، ويا خليفة إبراهيم ! إنهض لبناء العالم من جديد ، انتبه من السبات العميق ، الذي طال أمده ، واشتدت وطأته » .

أنتم بناة الحرم ، فانهضوا لبناء العالم من جديد ، لأن بناة الحرم هم الذين يستطيعون أن يبنوا هذا العالم المنهار من جديد ، وتجري اليوم في العالم كله عملية التخريب وكل ما يبدو من عمله بناءً هي عملية هدم وتقويض ، ثم أنتم تحملون رسالة ، وتؤمنون بكتاب حي ، وتتبعون نبياً كان من اختصاصه اخراج العالم من جميع العبوديات الى عبودية الله وحده فلستم هنا في أمريكا كإنسان يأكل ويشرب فحسب ، ولا كهنود وباكستانيين ، ومصريين وسوريين بل أنتم مسلمون وأمة مسلمة ، يقول شاعركم الاسلامي الدكتور محمد اقبال :

« حطّموا أصنام الألوان والعناصر والأجناس ، وانصهروا في بوتقة الاسلام ، حتى لا يبقى هناك « توراني » أو « إيراني » أو « أفغاني » .

لا بد أن تعرفوا شخصيتكم ومنصبكم ، وتدركوا قيمتكم ، لستم كآلة متواضعة تركب في ماكينة فتفقد كيانها ، ولستم كالأنعام فتأكلون كما تأكل الأنعام ، وتشبعون كما تشبع ، بل يجب أن تبلغوا إلى الامريكان وإلى الغرب رسالتكم ،

وتوقظوهم من غفلتهم ، وتنبهوهم على خطأهم وتفهموهم . أنكم منحرفون عن الخط الصحيح في درب الحياة ، ولم تعرفوا لذة الحياة الحقيقية ، وأنتم في جهل أي جهل ، بالاتجاه الصحيح للحياة .

وأحيانا يتيقظ فيهم الشعور فيسيرون في جهات خاطئة ، فيتجهون الى سيرة الخنافس Hippicism يتجهون الى الانتحار ، والى التخلص والفرار من الحياة ، يتجهون الى الطريقة اليوكية ، والى البرهمية ، يقيم الهندوس في الهند في مدينة « إله آباد » عيداً دينياً كبيراً لو شهدتم هذا العيد لرأيتم كيف يتشرد فيه كثير من الأمريكان المثقفين ، ويتسكعون كمجانين ، ويتيهون كالبهائم والأنعام ، يجلسون الى النسّاك الهنادك والسدنة والأصنام ، والأمر الذي يدل على أنهم أصيبوا بالتخمة ، بتخمة المدنية ، قد شربوا من خمر المدنية ، الى حد الغثيان ثم يؤمون ابتغاءً للشفاء والعلاج أطباء لا يشفى عليلهم ولا يروي غليلهم .

ويا ليته كان هناك مجتمع اسلامي يصلح لأن يأخذ بأيدي الأمريكان الى الصراط المستقيم ، ويخاطبهم مخاطبة الأستاذ للتلميذ ، والكبير للصغير ، ولكن يا لسوء حظنا ، فليس هنالك مجتمع مثالي يصلح أن يخاطب الأمريكان مخاطبة الند للند ، ويهديهم الى الطريق القويم .

فحينما يتقزز أمريكي من مدنيته ، ويسأم من مجتمعه ، يقصد الهند و « نيبال » ـ بغية سكينة القلب وطمأنينة النفس ـ

ويرتاد قلل « همالا » ويصيب من المسكرات ، ويتناول المخدرات ، والحشيش ، وما إلى ذلك من الأشربة الروحية ، ويختار الخنفسة و « الهبية » ، يا ليتنا نحن المسلمين نستطيع أن نسعفهم ، ونأخذ بأيديهم إلى شاطىء الحق والصواب .

أين المسلمون ؟ :

إخواني ـ ! فلا يكونن عملكم ، في هذا البلد ، هو الكسب والأكل فقط ، فان ذلك تصنعه كل أمة في العالم ، وقد يجيده جيراننا الهنادك في الهند اكثر منكم ، بل لا يهمنكم من الكسب والعمل ، والطعام واللباس ، إلاّ ما يسدّ حاجتكم ، ثم اذكروا هدفكم ، وأقبلوا على مقصدكم ، واعرفوا مركزكم ، وقدّموا لهم نموذجا للحياة جديدا ، وأذّنوا ، حتى يكون زجراً لعقولهم ، وأقيمو الصلاة حتى يبصروا ويفكّروا ، وعيشوا حياة طهر وصفاء ونقاء ، حتى يكرهوا الحياة الدنسة القذرة ، وخذوا في حياتكم بالتوسط والاعتدال ، حتى يشعروا بتطرفهم واسرافهم ، وعيشوا عيشة السكون والهدوء متحررين من حياة المصانع والماكينات ، حتى يدركوا مصدر السكينة والطمأنينة ، واشحنوا قلوبكم بالروحانية وبقوة الايمان واليقين ، حتى يشعروا بالجلوس إليكم بقوة جديدة في أنفسهم .

يا ليته كان هناك ربانيون ، ورجال القلوب واليقين ، فيشملون هؤلاء الحيارى التائهين ـ الذين قد سخطوا على حياتهم ، ويكادون ينسلخون من ثيابهم ، ويفرون من بلادهم ـ برعايتهم

وعنايتهم ، ويمسكون بأيديهم ، ويقولون : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

وهذه الرسالة لا يقوم بتبليغها إلاّ المسلمون فأين المسلمون ؟ هل هناك بلد إسلامي ، أو شعب مسلم ، يستطيع ان يأخذ بأيدي الأمريكان ، ويقول : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » عاد المسلمون اخيراً ـ مع الأسف ـ متجردين من الاعتقاد ـ في معنى الكلمة ـ بما في هذه الآية ، فكيف يقولون ذلك لغيرهم ، والذين أصبحوا لا يثقون بعظمة الصلاة واعجازها وبحقّيّة الكلمة وصدقها ، وبكون الله مالكا للخير والشر ، والنفع والضرر ، وبالقضاء والقدر ، والذين اعتبروا الأمريكان رازقيهم ، واعتبروا المصانع رازقة لهم ، كيف يستطيعون أن يدعوا الأمريكان إلى التوحيد الخالص النقي ، وإلى إفراد الله بالعبودية والعبادة ، وكيف يستطيعون أن يقولوا لهم : لا رازق إلاّ الله ؟ ،

إخواني وأخواتي ! اعمروا قلوبكم أولا بالايمان ، وحافظوا على الصلاة ، واذكروا الله في ساعات الخلوة ، وأعيدوا إلى قلوبكم تلك الحرارة التي سلبها دخان المصانع الكثيف ، وصححوا غاية حياتكم ، واجتهدوا أن تعيشوا حياة « الإنسان » ، واقرأُوا القرآن ، وادرسوا السيرة النبوية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ واستضيئوا بها ، واجعلوها مشعل حياتكم ، ثم ادعوا الأمريكان الى دين الفطرة ، ألا وهو الاسلام ! فإنه هو دين الفطرة وحده ، فلا يثبط الفطرة ، ولا يكبتها ، ولا

يضيق الخناق عليها ، كالمسيحية وغيرها ، بل الاسلام يعتقد أنه « ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجسانه [1] » فالفطرة من حيث هي ، صالحة طاهرة ، « فطرة الله التي فطر الناس عليها » .

جعل الله هذه الفطرة ، كاللوح الصافي ، لم يكتب عليه بعد ، ووضع فيها الميل القوي إلى الخير ، فالإنسان صالح بالفطرة ، ويحب الصلاح والخير ، ويكره القبيح والشر ، فاذا ترك وشأنه ، فسيسير على الطريق المستقيم ، بإيحاء من فطرته ، فلا بد أن تعوا هذه الحقائق اولا ، وتسيغوها بالعقل والقلب كليهما ، ثم بلغوها اليهم ، لأنكم أمة دعوة ، وأمة رسالة ، وأمة غاية ، ولستم كبهائم تسوم وترعى ، ثم تقبل على إرضاء شهوتها الجنسية .

اكتشفوا الانسان :

وضعت أمامكم خواطري وأشجاني ، قد رأيت في أمريكا كل شيء إلاّ الإنسان ، ولئن رأيته ، فربما رأيته فيكم ، وليس السبب في ذلك أني لم أخالطهم ، فقد رأيتهم في كتاباتهم ، وخطاباتهم ، وعلى تليفزيونهم ، ومذياعهم ، فلست جاهلا بهم ، ولكني أريد « الإنسان » الذي هو خليفة الله في الأرض ، والذي من أجله خلق الله الكون ، والذي يحمل في صدره القلب الحي الذي هو أغلى من كل شيء في الحياة ، لا حقيقة

(١) حديث متفق عليه ، وقد اخرجه ابو داود والترمذي أيضاً .

لخزائن الأرض بأسرها في جنبه ، ولا لجميع الانتصارات التي أحرزها العلم ، ذلك القلب الذي هو قلب صاحب القلب ، هذا هو الإنسان ، اكتشفوا هذا الإنسان وأيقظوا هذه الإنسانية في أنفسكم ، وإذاً فيحق لكم أن تعيشوا في هذه البلاد ، بل هناك ستكون إقامتكم فيها عبادة ، وخدمة للعباد ، وتبليغاً للدعوة ، وسعادة لكم في الدنيا والآخرة .

تخوّف واشفاق :

وإلاّ فاسمحوا لي ـ أيها الإخوة والأخوات ـ أن أصارحكم بأني أخاف عليكم كثيرا ، إذا لم توفروا تلك الأسباب التي تمكنكم من الحياة الدينية ، ومن تعليم أطفالكم وبناتكم ، وتربيتهم الدينية ، ولم تأمنوا جيداً على مستقبلهم الديني ، وعلى بقائهم على الإيمان والاسلام ـ أخاف أن تكون إقامتكم هنا معصية لله ولرسوله ، وإذاً فأنتم في خطر هائل ، « ان الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ ، قالوا : كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة ، فتهاجروا فيها [1] ؟

فلا يجوز لنا أن نعيش إلاّ في المكان الذي يتمتع فيه الدين بحريته ، ويحيا بمزاياه ، وخصائصه ، ويكفل لنا فرصة القيام بالفرائض والواجبات ، فإن كان هناك مجتمع لا يسمح

---

(١) سورة النساء الآية ـ ٩٨ .

بذلك ، أو نشعر بأننا لا نتمكن من تأدية الفرائض في هذا المجتمع ، لا يجوز لنا الإقامة فيه ، ويحتم علينا الدين أن نغادره الى مجتمع آخر .

ويجب عليكم أن تكوّنوا في هذا البلد بيئة تلائمكم ، وتمكنكم من بقائكم على الاسلام والدين والإيمان ، ومن قيامكم بالعمل الديني ، ومن أن تعيشوا بجميع مزاياكم وتشخصاتكم الدينية ، ثم استوثقوا من مستقبل أولادكم ومن أنهم سيحتفظون بإيمانهم بعدكم ، كما صنع يعقوب - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - مع بنيه ، يقول الله تبارك وتعالى :

« أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدي ، قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك : إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن مسلمون » [(١)]

ومن ثم فيجب أن نستوثق ونتأكد - فيما يتصل بأولادنا وأكبادنا - هل يبقون بعدنا مسلمين ، فإن لم يكن على ذلك أمن وإطمئنان ، فلا بد أن نراجع رأينا ونستفتي ضمائرنا ، هل نقيم في هذا البلد ، أو نغادره إلى بلد آخر ؟ .

يمكن أن تعيشوا هنا كمسلمين :

إنني أشكر - شكر المعترف بالواقع - جهود M.S.A.

---

(١) سورة البقرة - ١٣٣ .

والخدمات التي تؤديها المؤسسات والمنظمات ، التي لا أعرفها أنا بالتحديد ، والمحاولات التي يقوم بها الذين يسعون في نشر الدين وتبليغ الدعوة الإسلامية ، ويوزعون النشرات الإسلامية ويكونون حلقات الإخوان ، ويجمعون الشباب ، لهذا الغرض ، سواء أكانوا عرباً أو عجماً ، فكلهم سعداء ، تقبل الله سعيهم وشكر جهودهم ، ورفع درجاتهم .

وأخيراً فأوجّه إليكم كلمة : إنكم تستطيعون أن تعيشوا في هذا البلد كمسلمين ـ إذا شئتم وأردتم ـ ولا تذوبون أمام وهج الحضارة ، كما يذوب الندى أمام وهج الشمس ، أو الشمع أمام لفحة النار ، وإن كنتم تخافون الذوبان ، فعليكم ببلادكم الأم التي وفدتم منها إلى هذا البلد ، ولو كان لكم فيها ربع أو عشر ما تكسبون هنا ، أو أقل من ذلك بكثير ، وإذا استطعتم أن تحيوا حياة المسلمين في هذه الربوع ، فسعداء أنتم ، وسعيدة إقامتكم فيها ، فعسى أن يهد الله بكم أهلها نوراً جديداً ، وأن يفتح بكم طريقا يدخلون به في الإسلام أفواجا . « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » .

احذروا من أن ينشأ إسلام أمريكي أوروبي

(محاضرة ألقيت في مدينة « نيوجرسي »
New Jersey في أمريكا الشمالية ، وقد
قدم المحاضر العالم المصري الباحث ،
الدكتور سليمان دنيا المشرف العام على
المركز الاسلامي ، وقد ذكر في كلمته القيمة
أن الاسلام والثقافة العربية الاسلامية ليست
محتكرة على العرب ، خاصة بهم ، وأشاد
بما لعلماء العجم ـ خاصة علماء شبه القارة
الهندية ـ من مساهمة كبيرة في تكوينها
وتوسيعها وتهذيبها ، ونوه بصفة خاصة
بمآثرة العلامة السيد مرتضى الزبيدي
(البلجرامي الهندي صاحب « تاج العروس »
في شرح القاموس المتوفى ١٢٠٥ هـ)
واللغوية العلمية ، وذكر أن الاسلام دين
عالمي لا يعرف الحدود الجغرافية والفروق
الاقليمية والقومية .

وقد استمع الى هذه المحاضرة عدد
وجيه من العرب المثقفين والهنود والباكستانيين
المقيمين في أمريكا ، وذلك في ١٦/

جمادى الآخرة ١٣٩٧ هـ ـ ٤/ من يونية ١٩٧٧ م ، ظهرا ، ونقل نص هذه المحاضرة من الشريط المسجل وتناوله المحاضر بالتنقيح والتهذيب وشيء من الحذف والزيادة) .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

الإسلام يغزو الولايات المتحدة :

إخواني وسادتي ! أنا سعيد بهذا اللقاء الكريم وبهذه المناسبة الطيبة المباركة حين ألتقي بكم في هذا المركز الاسلامي الكبير ، وهذه هي جولتي الأولى في الولايات المتحدة في أمريكا الشمالية وكنت أسمع كثيرا عنها وعن إنتشار الاسلام فيها ، وعن عناية إخواننا المسلمين الذين تدبروا هذه البلاد وانتقلوا إليها بالاسلام وبحبهم له وبغيرتهم عليه ، ولكنني لا أخفي عنكم أنني لم أكن أتصور أني سأجتمع بإذن الله بهذا العدد الكبير من اخوتي المسلمين ، وأرى فيهم هذا النشاط وهذا الحماس للدين ، وهذه العاطفة الاسلامية الطيبة .

وقد عرفت أن الاسلام بدأ يغزو هذه البلاد ، التي تسيطر الآن على العالم المعاصر ، تسيطر عليه بتقدمها في الصناعة وبتقدمها في العلوم الحديثة والعلوم التطبيقية ، وبتقدمها في مضمار الاكتشافات وباستحواذها على مجال الحياة السياسية في هذا العالم .

لقد بدأ الاسلام يدخل في هذه المنطقة وصار يشق له طريقاً الى الأمام ، وسيأتي يوم قريب إن شاء الله حين يتكون مجتمع إسلامي هنا في هذه البلاد البعيدة ، انني متفائل وانني مسرور وسعيد بذلك .

ولكن في نفس الوقت يساورني خوف في ضوء التجارب والدراسات التي وفقني الله لها .

وهو أن نشوء مجتمع إسلامي في بلاد بعيدة عن مركز الاسلام وعن مركز الثقافة الاسلامية ومركز الحياة الاسلامية أمر خطير .

الاسلام يحتاج الى جو خاص :

لا شك ان الاسلام ليس خاصاً ببلد دون بلد كما تفضل أستاذنا الدكتور سليمان دنيا ، ـ وأنا أوافقه في ذلك مائة في مائة ـ أن الاسلام ليس ديناً اقليميا ، ولا ديناً جغرافيا .

ولكن رغم ذلك كله مما لا شك فيه أنه يحتاج الى جو خاص ، يحتاج إلى ذوق مسيطر على التفكير والشعور وموازين الأشياء والقيم تشم رائحته من بعيد ، انه يحتاج الى مناخ إسلامي واذا كنت أكثر صراحة وأدق في التعبير قلت انه يحتاج الى طقس ودرجة حرارة وبرودة معينة (Temperature) لأنه دين حي إنساني ، ليس دينا عقليا يعيش في المخ أو يعيش في الفلسفة أو يعيش في مكتبة ، ان الإسلام ليس عقيدة فحسب أو ليس قائمة طويلة أو قصيرة من عقائد يدين بها الانسان وكفى .

الاسلام في وقت واحد عقيدة وعمل ، وسلوك ، وخلق ، وعاطفة ، وشعور ، والاسلام كذلك ذوق ، ذوق يستولي على الانسان ويصوغه صياغة جديدة ، اذا شرح الله صدر أحد لدين الاسلام وآمن به كدين الله المختار وكالرسالة الأخيرة ، فانه يصهر في بوتقة الاسلام ، انه يسبك سبكاً جديداً ويصاغ صياغة جديدة وكأنه ولد من جديد ، لأن الاسلام نشأة مستقلة ، نشأة كاملة شاملة ، فيها كل الانقلاب ، وفيها كل الكمال ، فالإسلام ليس عقيدة جافة ، عقيدة حرفية ، انه دين يتغلغل في الأحشاء ويسري في العروق كما يسري التيار الكهربائي وكما يسري التيار من جسم الى جسم ، ومن مصدر الى مصدر .

انها صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة :

فاذا كان هذا شأن الاسلام فالاسلام ليس شيئاً ينقل حرفياً فقط ، مثلا يقول الإنسان آمنت بالله ، وآمنت بالرسول وآمنت بالآخرة ، وكفى ، هو منهج تفكير خاص ، وذوق خاص ، يحكم على الأشياء هذا طيب ، وهذا خبيث ، ان النبي ﷺ كان يستحسن أشياء ويستهجن أشياء ، كان يحب التيمن في كل شيء ، كان يحب التيمن في تنعله وفي ترجله وفي شأنه كله ، وكان ينشط لأشياء ويتنغص برؤية أشياء ، انه ذوق نبوي ، ذوق سماوي ، ذوق نزل من فوق سبع سماوات ، وحمله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأورثوه .

لذلك نرى أن الله تبارك وتعالى يصف للاسلام بصبغة

الله اذا كان الاسلام عقيدة فحسب ، واذا كان الاسلام عملا فحسب ، لم يكن يستحق أن يسمى صبغة ، الصبغة لون شامل وسمة مميزة وشعار فاصل ، وطابع ممتاز ، الاسلام لا يكون لونا ولا يكون صبغة الا اذا كان شيئاً يفرق بين انسان وانسان ، وبين حياة وحياة ، وبين سيرة وسيرة ، وبين ذوق وذوق ، وبين موازين الأشياء والقيم والمثل ، فموازين الاسلام غير موازين الكفر ، انها غير موازين الجاهلية ، لذلك ترون في الحديث النبوي وفي كتب السنة اشارة الى الجاهلية وشعائرها ، فيقال مثلا إنه من خصال الجاهلية ، إنه من حمية الجاهلية ، وجاء في القرآن : « ولا تبرَّجْن تبرج الجاهلية الأولى » .

لماذا ؟ الجاهلية قد مضى دورها وانقضى ، لماذا يعبر القرآن بالجاهلية لأن الجاهلية كانت حياة مستقلة ، فيها حسن وقبيح ، وفيها حلال وحرام ، وفيها فرض وواجب وممنوع ، وفيها موازين خاصة للأشياء ، فالجاهلية كانت حياة كرهها الله سبحانه وتعالى ومقتها ولعنها ، ولذلك جاء في الحديث الشريف « ان الله نظر الى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلاّ بقايا من أهل الكتاب » ، فهذه الجاهلية قد أبغضها الله سبحانه وتعالى ولعنها وأسقط قيمتها وكرهها لعباده فقال : « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » ، ويقول : « اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية ، حمية الجاهلية » ، وكان النبي ﷺ اذا رأى في مسلم شيئاً من بقايا الجاهلية قال : « انك امرؤ فيك جاهلية » كما قال لأبي ذر لما رأى الفرق الكبير بينه وبين غلامه

وراه يضرب غلامه وينزل عليه بالضرب والاهانة قال له : « انك امرؤ فيك جاهلية » فتأثر بذلك أبو ذر فجعل لا يفرق بينه وبين عبده ، يكسو مولاه ما كان يكسو نفسه ويطعمه ما يأكله .

فالله سبحانه وتعالى يسمي الاسلام بصبغة الله فلولا أن الاسلام لون خاص للحياة ، ونمط خاص للحياة لما سماه بالصبغة فقال : « صِبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » .

ما هو الاسلام ؟

ثم ان الله تبارك وتعالى حث عباده على اتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال لما ذكر قائمة طويلة مشرقة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاًّ هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داؤد وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين ، واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون »[1] ، ثم قال : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » يعني اقتف آثارهم ثم خص نبيه ﷺ بكونه قدوة دائمة وأسوة حسنة ، ومثلا كاملا فقال مخاطباً للمؤمنين على

---

(١) سورة الانعام آيات ٨٤ ـ ٨٨ . ـ

لسان نبيه ﷺ في سورة آل عمران : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » .

وكذلك للاسلام حساسية زائدة بالنسبة الى الديانات الأخرى إنه يتأثر أكثر من أي دين ، ان المسيحي اذا قال أنا نصراني يكفي ، ويختار من الحضارات والفلسفات وأنماط الحياة ، ومناهج التفكير والمثل والقيم ما يشاء ، وقد سأل صديق لي في الهند هندكياً من كبار المثقفين فقال له يا أخي ! ان المسلم اذا سئل ما هو الاسلام يقول لا اله الا الله محمد رسول الله ، والاسلام يتلخص في هذا ، كذلك اذا سئلت أنت مثلا بصفتك هندكياً بماذا تجيب ؟ ، لا أريد كتابا مطولا عندي مكتبة اذا أردت أن أعرف الفلسفة البرهمية مثلا أو فلسفة « ويدانت » مثلا أنا أستطيع أن أراجع الكتب ولكني لو قلت لك مثلا ما عندي الا دقيقة واحدة أو دقيقتان فأنت قل لي كلمة تكون فيه روح الهندكية وجوهر الهندكية ، قال فسكت هنيهة ثم قال يا فلان ! الهندوكي لا يؤمن بشيء وهو يؤمن بكل شيء فالإنسان إذا قال أنا هندكي لا يحتاج الى شيء ، هو هندكي مهما كان سلوكه وتصرفه ، آمن بأشياء وكفر بأشياء فانه هندكي ما دام هو يشهد لنفسه أو على نفسه بأنه هندكي يكفي هذا .

ليس الاسلام هكذا يا إخواني ! الاسلام كما قلت لكم أكثر الديانات حساسية انه يتأثر أكثر من كل دين ، له حدود معروفة معينة ، هذا اسلام وهذا كفر ، وهذه جاهلية ، وهذا

حلال وهذا حرام ، وهذا طيب وهذا خبيث ، وإلى هنا الاسلام ثم الردة ، ولا مفهوم للردة في دين آخر بالمعنى الواضح الذي نفهمه ونعرفه ، لا تجدون مرادفا لهذه الكلمة في ديانات كثيرة ، وعندنا الردة أكبر الكبائر وأكبر الآثام تقشعر منها الجلود ، وقد جاء في الحديث الصحيح : « ويكره أن يعود الى الكفر كما يكره أن يقذف في النار » .

مسئولية كبيرة ضخمة :

فأقول لكم اذا كان هذا شأن الإسلام فمسئوليتنا نحن المقيمين في أمريكا وفي أوربا مسئولية كبيرة ضخمة ، اذا كان الاسلام مجرد عقيدة أو مجرد أعمال ، أو مجرد عبادات ، كان الأمر سهلا ، لكن الاسلام اذا كان صبغة ، وإذا كان نمطاً للحياة ، واذا كان شعوراً وعاطفة ، وحساسية ، وإذا كان الاسلام يتأثر أكثر من كل دين وإذا كان الاسلام انقلابا ، واذا كان الاسلام تغيرا جذرياً في الموازين وفي القيم وفي المثل وفي استحسان الأشياء واستهجانها فأمره دقيق عميق ، ومسئوليته كبيرة ضخمة .

فلا نستطيع أن نكتفي بمجرد قراءة الكتب ولا نستطيع أن نقتصر على سماع المحاضرات فقط ، مهما كانت دقيقة ومهما كان مستواها رفيعا ، ولكن لا نستطيع أن نتذوق الاسلام ونتشربه من خلال الكتب فقط ، أو من خلال المحاضرات فقط ، وإن كانت الكتب لا غنى عنها ، ولا بد منها وان كانت

المحاضرات لا غنى عنها وهي مفيدة لا شك ، ولكننا لا نستطيع أن نقتصر على مطالعة الكتب أو على سماع المحاضرات ، اننا نحتاج إلى مناخ إسلامي ، نحتاج إلى جو إسلامي ، نحتاج إلى صبغة إسلامية ، نحتاج أن نشاهد الإسلام بعيوننا ، ونسمعه بآذاننا ، ونتلمسه بأصابعنا ، ونتذوقه بأذواقنا .

الى الاسلام الحيّ :

اذاً لا بد من اللقاءات ولا بد من الصحبة ، ولا بد من أن نعيش حياة اسلامية ، نخرج الى مناطق فيها تقوم الحياة الاسلامية ، وفيها يوجد المجتمع الاسلامي المثالي أو شبه المثالي ، أو نصف المثالي ، أو ربع المثالي ، ولكن لا بد لنا أن نشاهد الاسلام يسعى على قدميه نشاهد الاسلام يتنفس برئتيه .

فلا بد من صحبة المؤمنين الصادقين ولذلك نرى أن الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه وأنتم تعرفون أن النبي ﷺ هو النبي المعصوم ، وهو النبي المصطفى وهو المثال والقدوة لجميع البشر وجميع الأجيال البشرية ، لكن الله سبحانه وتعالى يحثّ نبيه على الصحبة ، على صحبة الصالحين يقول « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشي يريدون وجهه ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » ، واذا كان هذا شأن النبي المعصوم فكيف بالمسلمين ؟ أما سمعوا قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » فلا تكفينا المطالعات والقراءات

مسئوليتنا نحو انشاء مجتمع اسلامي مثالي :

المجتمع الاسلامي هنا في نشوء وفي تكون وهو في دور الطفولة ويجب أن نشعر بمسئوليتنا نحو هذا المجتمع وان نكون واعين ، نعرف ان هذا المجتمع الذي قد ولد بفضل الله تعالى وبحوله ، نرجو أن يقوم وينشأ ويترعرع ويبلغ سنّ الرشد حتى تتوفر عنده أسباب التربية . ما هي أسباب التربية ، أسباب التربية العقيدة ، الايمان والدراسة ، والثقافة ، والصحبة ، والمجاهدة ، يقول الله تبارك وتعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وان الله لمع المحسنين » ، والذين يجاهدون في دين الله فالله سبحانه وتعالى يفتح عليهم من أبواب الايمان ومن أبواب الحكمة ، ومن أبواب البصيرة ، ما لا يتخيله الانسان .

هذه هي مسئولية هذا المجتمع الذي أنتم أعضاؤه وأنتم مؤسسوه ، والحمد لله لكم فضل كبير في ايجاد هذا المجتمع لولا أنتم ولولا انتقلتم من بلادكم ولولا اتخذتم هذه البلاد وطن اقامة لكم وآثرتموها على غيرها من البلاد ، لما كان هذا المجتمع أن يولد وأن ينشأ ولكن احرصوا على أن يكون هذا المجتمع مجتمعاً اسلامياً مثاليا ، لا يكون مجتمعاً يعيش على فلسفة فقط ، الاسلام ليس نظرية سياسية فحسب ، ليس فلسفة عقلية واجتماعية فحسب ، وليس نظام حكم فحسب ، انه قبل كل شيء عقيدة تتغلغل في الأحشاء ، عقيدة تسري في النفس وتتعمق جذورها ، ثم الاسلام كما قلت لكم تطبيق عملي ، والاسلام كذلك ذوق ، وكان اسلام الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين

يشمل هذه الجوانب كلها ، كانوا مسلمين عقيدة ، وكانوا مسلمين خلقا ، وكانوا مسلمين ذوقاً كذلك ، كانوا ميزاناً في الحكم على الأشياء ، لذلك ساغ للصحابي الجليل عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أن يقول : « ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح [1] » ، المقصود بهؤلاء المسلمين الصحابة كما هو عند المحققين ، ما رآه الصحابة حسناً فهو عند الله حسن ، أصبحوا ميزاناً للأشياء فما استحسنوه بالاجماع فهو حسن وما استهجنوه بالاجماع أو بالأكثرية فهو مستهجن .

وهكذا يطلب الاسلام ، ويطلب القرآن من المسلم أن يكون ميزاناً وأن يكون اسلامه شاملاً لهذه الجوانب كلها ، يتذوق الاسلام تذوقاً حقيقياً ، حتى يرى الأمريكي الفرق الهائل بين المجتمع الأمريكي الذي تسوقه المادة سوقاً عنيفاً لا رحمة فيه ولا هوادة ، سوقاً عنيفاً وحشياً ، وبين المجتمع الاسلامي ، فيرى مجتمعاً هادئاً ، مجتمعاً رزيناً ، مجتمعاً وقوراً ، مجتمعاً مؤدبا ، مجتمعاً عفيفا ، مجتمعاً صالحا ، مجتمعاً يحيي الليل بالعبادة ويحيي النهار بالاجتهاد ، وبالكفاح وبالحصول على معاش طيب ورزق كريم وفي خدمة الانسانية .

ووجود هذا المجتمع بنفسه هو انتصار للاسلام وفتح له فيقول الإمريكي ان لذة الحياة في المجتمع الاسلامي لا لذة

(١) رواه أحمد في كتاب السنة عن ابن مسعود من ، وهو موقوف حسن وأخرجه البزار والطيالسي والطبراني والبيهقي .

للحياة في مجتمعنا ، ويتمنى الامريكيون أن ينتقلوا الى هذا المجتمع الاسلامي الذي تغشاه السكينة ، ويغشاه النور ، ويلعنوا مجتمعهم الفاسد العفن الذي ولدوا فيه وعاشوا .

لكيلا ينشأ إسلام اقليمي :

وفي الأخير انني أخشى أننا في أمريكا وفي كل بلد اذا انطوينا على نفوسنا وانكمشنا في سلخنا كما تنكمش الحية ، واقتصرنا على مطالعة الكتب والدراسات العلمية أو البحوث النظرية والفلسفية وانقطعت الصلة بيننا وبين مصادر الاسلام الحقيقية ، ومراكز الحياة الاسلامية التي يعيش فيها الاسلام على علات هذه الحياة ويسودها الجو الاسلامي ، وجفّت منابع الشعور الاسلامي والعاطفة الاسلامية في نفوسنا وفي قلوبنا ، نشأ اسلام أمريكي ، واسلام أوربي ، واسلام ايراني ، واسلام ياباني ، واسلام هندي ، واسلام باكستاني ، تنكر كل للآخر واختلف عنه اختلاف الامريكي عن الآسيوي ، والياباني عن الافغاني ، وتنشأ مجتمعات للمسلمين تختلف أذواقها ومثلها وقيمها وموازين الأشياء فيها .

وهذا خطر كبير على الاسلام يجب أن يواجه ويعالج قبل استفحاله وقبل ان يفلت الزمام من يد قادة الاسلام ، وهي الحكمة الرئيسية في مشروعية الحج وجمع المسلمين ـ على اختلاف بيئاتهم وقومياتهم ولغاتهم وثقافاتهم ـ على صعيد واحد وفي زمن واحد حتى لا يلتبس أمر الدين على أحد وحتى

يمكن استعراض الاسلام في مختلف أنحاء العالم الاسلامي وحتى تتيسر مخالفة البدع والتحريفات التي تنبت «كالحشائش الشيطانية» في العقول والمزارع ويمكن التنبيه عليها ، فلولا الحج لتعرض هذا الدين والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها للتحريف كما تعرضت الديانات الأخرى .

فالحذر كل الحذر أيها الاخوان من نشوء اسلام اقليمي قائم بذاته ومن تكون مجتمع للمسلمين يختلف عن جوهر الاسلام وأسسه كل الاختلاف .

هذه كلمتي فتح الله بها عليّ في هذا الوقت ، واذا تأملتم فيها وأنتم خلوتم بأنفسكم شعرتم بقيمتها وفائدتها وأثرها في الحياة هنا وفي الخارج ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

فهرس

صفحة

كتب المؤلف

مذكرات سائح في الشرق العربي

مؤسسة الرسالة ـ بيروت

أذا هبت ريح الإيمان

مؤسسة الرسالة بيروت ـ دار القلم ـ كويت

قصص النبيين للأطفال ٢/١

مؤسسة الرسالة ـ بيروت

قصص (السيرة النبوية)

مؤسسة الرسالة ـ بيروت

التربية الإسلامية الحرة

مؤسسة الرسالة ـ بيروت

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

دار القلم ـ الكويت

رجال الفكر والدعوة في الإسلام ٢/١

دار القلم ـ الكويت

الأركان الأربعة

دار القلم ـ الكويت

ربانية لا رهبانية

دار القلم ـ دمشق

النبوة والأنبياء

دار القلم ـ دمشق

المد والجزر في الإسلام

دار القلم ـ دمشق